

منزل وسيارتان وطفل

منزل وسيارتان وطفل

تأليف: تانيا رايخ

ترجمة: د. رضوى إمام
تحرير: هدى فضل
مُراجعةٌ لُغوية: سوسنة سيد

الطبعة الأولى: يناير 2022
رقم الإيداع: 2021/22924
الترقيم الدولي: 9789773196721



60 شارع قصر العيني – 11451 – القاهرة - مصر
ت:27921943 (202+) – 27954529 (202+)، ف:27947566 (202+)
www.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف: سيد كامل

تانيا رايخ

منزل وسياراتان وطفل

روايةٌ مِنْ النمسا

ترجمتها عن الألمانية: د. رضوى إمام



Federal Chancellery

Supported by the Austrian Federal Chancellery

تمت مراعاة المعايير البيئية أثناء إعداد هذا الكتاب

We took into consideration the environment while doing this book

بطاقة فهرسة

رايخ، تانيا

منزل وسيارتان وطفل/ تأليف: تانيا رايخ؛ ترجمة د.رضوى إمام.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2021

ص؛ سم.

تدمك: 9789773196721

1- القصص النمساوية

أ- إمام، رضوى (مترجم)

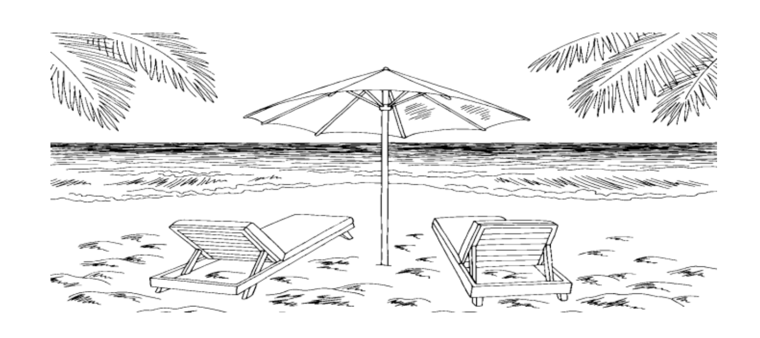
ب- العنوان 833

"وراء الأفق يوجد بحر آخر

وسيتواجد دائمًا بحر".

المغني الإيطالي، "جانماريا تستا"

المقدمة



على شاطئ "إيسولو" استلقينا معًا، أنتَ على بطنك وأنا على ظهري. كنتَ تشخر قليلًا، ولكن بصوت خافت. أما أنا، فكنت أقرأ رواية "دوستويفسكي"، التي أهديتني إياها في عيد الميلاد الماضي. حينها، أهديتني هذا الخاتم أيضًا، وقلتَ لي إنه ليس خاتم خطبة، بل مجرد هدية.

فاح الهواء برائحة الملح، في حين اشتدت حرارة الشمس على أجسادنا، وتصبب جبيني عرقًا. لم أكن لأحتمل الحرارة لولا نفح الرياح التي حملت إليّ بعض حبات الرمل، مع أنغام أغنية "ماكارينا"، التي دوت من البار. أردتُ أن أرقص، ولكن الوقت كان لا يزال مبكرًا. فلا أحد هنا يرقص عند البار في وضح النهار، بل يستلقون في هدوء تحت أشعة الشمس. صارت

مقاعد الاستلقاء مخططة بألوان قوس قزح. أتذكر أنها لم تكن كذلك في الصيف الماضي، بل كانت مخططة بالأزرق والأبيض. أما المظلات، فلم تُجدد، لم تعد تتماشى مع ألوان المقاعد.

كل عام، أجدني أتوق إلى تلك الشواطئ التي تكسوها مظلات من القش، ومقاعد من البامبو. دائمًا ما تقول لي أنني لن أجد تلك الأجواء في "إيسولو"، بل في أماكن أخرى مثل تايلاند. أما هنا، فالأقمشة مصنوعة من البوليستر.

يروقني هدير البحر، ونغمات موسيقى الصيف الخافتة، ورائحة القهوة والخبز المحمص، مع صليل كؤوس النبيذ، ومذاق "الجرانيتا"، ورفرفة المظلات مع نسمات الرياح، وصياح الأطفال المكتوم، وحبات الرمل العالقة بين أصابع القدم، ونداء بائع جوز الهند: "جوز هند لذيذ.. جوووز هند لذييييذ.. فيتامين.. بروتين.. جوووز هند لذييييذ!"

كان مفتول العضلات، وعلى ذراعه وشْمٌ على شكل مرساة، ناداني وهو يحمل صحنه الكبير قائلًا:

- أيتها الجميلة.. جوز هند لذيذ!

ظل واقفًا أمامي، ثم كرر نداءه، وكأنني لم أفهمه:

- أيتها الجميلة.. أيتها الحلوة!

هززت رأسي، فناولني قطعة قائلًا:

- هدية!

كانت باردة ومبتلة. وجدتُ عينيه تجول على جسدي، وكأنه يريد أن يضاجعني، فضممت ساقيّ على الفور. لفت انتباهي الصليب الذهبي حول رقبته، ثم مضى في طريقه. ومع كل خطوة، تناثرت حبات الرمل في الهواء، وواصل هو نداءه: "جوووز هند لذيييذ!"

الأجواء هي ذاتها؛ رائحة الفندق، المستلقون على الشاطئ، بائع المناشف، قائمة الطعام في مطعم البيتزا. ولكننا هذه المرة، مكثنا في غرفة أخرى، بها رأس استحمام "دوش" بدلًا من حوض الاستحمام.

في الصيف الماضي، لم تتراكم الزجاجات البلاستيكية على الشاطئ بهذا الشكل، ولم يطفُ هذا الكم من الطحالب فوق سطح البحر، كما كان النُدُل أكثر ألفة، وكانت حجرتنا أكبر، ووجبة الإفطار أشهى. ولكننا رضينا بالحال، فلا شيء يظل كما هو؛ يبقى كل شيء أفضل في الذاكرة.

⌘⌘

قلتُ لكَ:

- يروقني المكان هنا.. حبيبي! يا حبيبي! "جورج"! هل ستأتي معي؟ الرمال تحترق أسفل قدمي.

حاولتُ أن أمشي ببطء. في البداية، تحملتُ حرارة الرمال، ولكنها سرعان ما أحرقتني، فأخذتُ أركض أسرع وأسرع حتى وصلتُ إلى البحر، فألقيتُ نفسي بين الأمواج، كما لو كنت جوالًا ثقيلًا.

ضحكتُ، ولكني كنت أضحك وحدي. طِفت على سطح الماء، وتركتُ نفسي أنجرف مع التيار. رأيتُ من فوقي سحبًا صغيرة، تتجول في السماء،

في حين تلاشتْ آثار الطائرات ببطء. غمرتني الأمواج وحركتني معها، فانجرفتُ معها بعيدًا، حتى صرت بالكاد أستطيع أن أراك، بعد أن تحولتَ إلى نقطة صغيرة أسفل إحدى المظلات. وعندما عدتُ إليك، تسللتُ إلى جوارك، وعصرتُ شعري المبلل على ظهرك، فقلتَ لي باستياء:

– ماذا تفعلين؟

قلتُ لك:

– البحر رائع!

ولكنك استدرت مرة أخرى على بطنك قائلًا:

– دعيني أنام!

⌘⌘

جلسنا أمام البار، حيث احتسينا معًا كوكتيل "أبريول". قلتَ لي:

– إنها عادة لا تنقطع عن عطلاتنا أبدًا!

أشعلتَ سيجارة، ونفختَ حلقة في الهواء، ثم رشفتَ من كأسك. لاحظتُ احمرار وجهك، كما تركتْ نظارة الشمس خطًا أبيض على صدغيك. وجدتني أخلع خاتمك وأضعه أمامي. تُرى، لماذا أكدت لي أنه ليس خاتم خطبة؟ فقد اتفقنا بالفعل على عدم الزواج!

جلسَتْ أسرة صغيرة بجوارنا. ركض الطفلان إلى البحر، فنادتهما الأم قائلة:

– عودا إلى هنا!

أخذتْ الأم تركض وراء الأول، ثم حاولتْ أن تلحق بالثاني، في حين ظل زوجها جالسًا، يدخن سيجارته، وأمامه زجاجة البيرة، وكأنه لا يمت لهم بصلة. ولكن بعدما علا صياح الطفلين، اضطر أن يمارس دور الأب، فشدَّ الصغيرة من ذراعها بقوة، ثم أجلسها على حجره عنوة، وظل ممسكًا بها، بينما قاومت هي دموعها. حينها، بادلتَني النظرات، وتعالت ضحكاتنا. رأيتُ بريق الارتياح يلمع في عينيك، فقد شعرنا بالامتنان، لأنه تسنى لنا أن نجلس وحدنا ونستمتع بمشروبنا. فمع صخب تلك الأسرة، تسلل إلى أذنيّ صوت "إروس رامادزوتي"، وكأنه يقول لنا: "ليس هناك ما هو أجمل من ذلك!"

مازلت أتذكر قبلتنا الأولى. كنا سُكارى. جاءتنا الجرأة بعدما شربنا لترًا كاملًا من النبيذ. أتذكر كيف جلسنا وحدنا على مقعد في الحديقة، بينما دارت السماء من حولنا. وإذا بك تضع أصابعك على يدي، ووجهك يقترب من وجهي أكثر فأكثر، حتى تلامست شفاهنا. حينها، شعرت بدوامة تفيض في أعماقي، ولم أعد أدري إن كانت بسبب النبيذ، أم الوقوع في الغرام. ولكن قلبي سرعان ما تمكن من ضبط الإيقاع.

كنتَ خجولًا جدًا آنذاك، على الرغم من أنك كثير الحديث عن مغامراتك الكبيرة بين أصدقائك، ولكن معي أنا، تصبح طفلًا صغيرًا، شخصًا آخر، وكأنك شخصان في جسد واحد.

⌘⌘

نحن لا نتناول العشاء في الفندق أبدًا. فأنت دائمًا تقول: "السياح فقط هم من يأكلون في الفندق". ظللنا نسير على طريق المشاة، حتى تختار لنا مطعم بيتزا مناسب. سألتني:

- ما رأيك أن نذهب إلى ذلك المكان في المنتزه؟ ما اسمه؟ الذي يطل على البحر؟

قلتُ لك:

- أسعاره باهظة!

فقلتَ لي:

- لا يهم!

فقلتُ بتهكم:

- لا يجلس هناك سوى السياح!

فأجبتني سائلًا:

- وماذا في ذلك؟ السياح هنا في كل مكان.

سألتك:

- أتعلم المكان الذي أقصده؟

فأجبتني:

- بالطبع!

⌘⌘

كالعادة، ظللت واقفًا أمام قائمة الطعام، قبل أن ندخل المطعم. فأنت دائمًا ما تتفحصها جيدًا. سألتني:

– أتريدين أن ندخل هنا، أم نذهب إلى مطعم آخر؟

أجبتك:

– أنا جائعة، سندخل هنا!

أزحت بصري عنك باستياء، ثم تركتُكَ واقفًا، فقلتَ لي:

– رأيت ما فعلتِ بعينيك!

ثم لحقتَ بي سريعًا، لأنك لا تحب أن ينتبه الآخرون إلى شجارنا.

كانت مائدتنا في منتصف المكان. رأيتك تتحدث باقتضاب مع النادل. أعلم أنك أردت أن تغير مكاننا، ولكنك لم تفلح. كم كنت سعيدة لأننا لم نضطر إلى تغيير مائدتنا. فنحن دائمًا هكذا؛ أينما نجلس، دائمًا ما ترغب في تغيير المائدة، إما لأنها لا تروقك، أو لأن موقعها يستقطب الهواء، أو ربما لأنها قريبة من الحمام، أو من المدخل، أو من المطبخ. فلا أملك سوى أن أضحك عليك أيها المعقَّد. منذ متى وأنت هكذا؟

ولكنك أيضًا تحب أن تفاجئني، فكثيرًا ما يأتي إليّ النادل حاملًا معه باقة من الورد، أو بيتزا على شكل قلب. دائمًا ما تخطر لك أفكارٌ جديدة، تجذب إلينا أنظار الحضور. أراهم يبتسمون لي ويغدقونني بنظرات حالمة، وكأنهم يشتاقون إلى قصصهم الغرامية.

رأيتكَ منغمسًا في قائمة الطعام. وكنت أعلم أنك في النهاية، لن تطلب سوى زجاجة بيرة كبيرة، مع بيتزا "ديافولا" كالعادة، ولكنك بالطبع لا بد أن تتفقد القائمة أولًا، ثم تستغرق بضع دقائق في التفكير، قبل أن تحسم هذا الأمر.

جاء النادل، وسرعان ما ربحتَ مودته، بعدما أغدقتَه ببعض النكات. هكذا أنت دائمًا، تحب الحديث مع الآخرين. ليتني أعرف السبب! فأينما نذهب، أجدك تختلق المحادثات مع النذُل، ورجال الإنقاذ، وبائعي السوبرماركت، وسائقي الباص، والمشاة. دائمًا ما تخرج من جعبتك عبارة جاهزة، وكأنني لا أكفيك!

عندما رحل النادل مبتسمًا، ولم يتبقَ سوانا، صرفتَ بصرك عني، وأخذتَ تراقب الزبائن، فقلتُ لك:

- الأجواء هنا لطيفة!

فرفعتَ حاجبيك قائلًا:

- المهم أنكِ أحدثت جلبة في المكان!

أردتُ أن أقول لك أنني لم أحدث أي جلبة، وأنك أنت الذي جعلتنا نسير لساعات طويلة، حتى وصلنا إلى هنا، بدلًا من أن نقصد أي مطعم آخر بجوار الفندق، وعلى القدر نفسه من الجودة. ولكني لم أقل شيئًا، لأنني لم أشأ أن أعكر صفو أمسيتنا، فقلت لك:

- أحبك!

وإذا بالابتسامة تعود إلى شفتيك مرة أخرى. تأملت أسنانك الجميلة، فهي بيضاء ومستقيمة، كما لو كنتَ فتى إعلانات لمعجون أسنان.

بعد أن أنهينا الطعام، قلت لي:

- تعالي معي!

تمشينا على الشاطئ، حيث عم الظلام أرجاء المكان. لا أحد سوانا، وشعرت ببرودة الرمال أسفل قدميّ. جلسنا على الشاطئ، نرشف النبيذ من الزجاجة التي اشتريناها من المطعم، وإذا بك تقول لي فجأة:

- أريدكِ أن تعيشي معي.

فقلت لك:

- أعلم ذلك!

لم أدرِ ماذا عساي أن أقول. فكلما تحدثنا حول هذا الموضوع، أشعر بغصة في قلبي، وضيق في صدري. أيجب أن نحسم هذا الأمر الآن؟ ظللتُ أتأمل البحر، وقد انعكس ضوء القمر على سطحه، واصطدمت أمواجه بالصخور. اقتربت منا المياه أكثر فأكثر، وعلا صوت الأمواج، وابتلع أصواتنا.

⌘⌘

جلسنا معًا في شرفة الفندق نتناول الإفطار. وكعادتك، لم تضع في صحنك سوى رغيف من الخبز، وملعقتين من الزبادي، وملعقة من العسل، مع علبة صغيرة من الزبد، وعلبتين صغيرتين من المربى؛ إحداهما بالفراولة والأخرى بالكريز. وبالطبع لم تنسَ طبق "الموسلي". قلتُ لك:

- يوجد بطيخ أيضًا.

فأجبتني:

- نعم رأيته!

سألتك:

– ألا تريد أن تتذوق الجبن؟

فأجبتني:

– لا أحب الحوادق!

كنت تقضم الخبز دون أن تنظر إليّ. ثم فتحت الجريدة بجوارك، وأخذت تقرأ مقالًا عن البطالة في إيطاليا. فما كان مني سوى أن تنحيت جانبًا، كي أتأمل البحر. لم يكن الشاطئ مزدحمًا. رأيت صفوفًا طويلة من المظلات الزرقاء، ومن بعدها مظلات صفراء، ثم مظلات مخططة بالأبيض والأخضر، كلها متراصة بجوار بعضها، ولكني لم أفهم سبب ترتيبها على هذا النحو.

يذهب معظم النزلاء إلى الشاطئ قبل الإفطار، كي يضعوا مناشفهم فوق مقاعد الاستلقاء في الصفوف الأولى. أردت أن أفعل مثلهم، لأننا دائمًا ما ينتهي بنا المطاف في الصفوف الخلفية. ولكنك عارضتني قائلًا:

– أنا لست سائحًا.

فقلت لك:

– بلى! إنك سائح هنا!

قررت ألا أستطرد في الحديث معك، وأخذت أراقب الآخرين، كي أعرف كيف يحجزون أماكنهم.

تسللت إلينا بعض الهمهمات من الطابق السفلي، فالنزلاء البافاريون والهولنديون كانوا يخططون لبرنامجهم اليومي بصوت عالٍ.

طويتَ الصحيفة بعناية، تمامًا كما كانت. فأنت لا تطيق طريقتي العشوائية في طي الصحف.

رأيتك تتأفف. وبعد أن أخذتَ رشفة من قهوتك، قلتُ لك:

– هيا بنا!

ولكنك تأففت مرة أخرى، ثم سألتني، دون أن تنظر إليّ:

– متى سنعيش معًا؟ لماذا لا نحسم هذا الأمر؟

نظرتُ إليك، وشعرتُ أنك تتوق إلى سماع إجابة ترضيك، ولكنني قلتُ:

– هيا بنا!

⌘⌘

استلقيتَ على ظهرك، وأنا على بطني. فنحن نحرص على أن تتساوى درجة الاسمرار في جسدينا. لذا نستلقي على ناحية في الصباح، ثم على الأخرى في فترة الظهيرة.

غمرتُ نفسي بكريم الوقاية من الشمس، وأخذتُ أدلِّكه على ظهري لبعض الوقت، بينما شرد خيالي في حياتنا معًا: تراءى لي مبنى بيتك الكبير، وشجرة الكريز في الحديقة. تخيلت نفسي أدنو من الباب، ثم أفتحه، لأدخل المبنى، وأصعد السلالم. يتسلل صوت تليفزيون والدتك إلى أذنيّ. أسمعها تناديني، ولكني أتجاهلها، وأمضي في طريقي على أصابع قدمي، كيلا تسمع صوت خطواتي. أفتح باب شقتنا ولا أجدك بالداخل. فأجلس على الأريكة الزرقاء، التي اخترناها معًا من الكتالوج، ودفعتْ

والدتك ثمنها. إنها أريكة ضخمة، تكفينا وحدها في حجرة المعيشة، يتطابق لونها مع لون الخزانة، ويتماشى مع الستائر والسجاجيد.

هُيِّأ لي أنني سمعت صوت تليفزيونها المكتوم يتسلل إلى مسامعي، فاستدرت، ولكني فتحت عينيّ بصعوبة، بسبب قوة شعاع الشمس. كنتَ لا تزال نائمًا بجواري. فمنذ وصولنا، وأنت دائم الخلود إلى النوم. أعلم أنك منهك ومتوتر بسبب العمل، فأنت تعمل بلا توقف منذ عدة أشهر.

⌘⌘

أراقبك، وأتأمل حركة جسدك مع أنفاسك، وحبات الملح والرمل المتناثرة على شعرك. بدا وجهك مسترخيًا، وكأنك خالي البال، ولكني كنت أعلم أن بالك مشغول، وأننا سنظل نتحدث عن الموضوع نفسه، حتى تسمع مني كلمة "نعم"، وتراني أضع أمتعتي في الصناديق والحقائب، كي أنتقل إلى بيتك.

لماذا لا تقطن عائلتي في سكن فاخر؟ لطالما حسدت هؤلاء الذين يسكنون تلك البيوت الفارهة، ذات الحدائق والشرفات، والمطابخ العصرية، والحمامات الضخمة. ليت عائلتك تشبه عائلتي؛ ليس لها مال، ولا ممتلكات، ولا التزامات.

مسحت على ظهرك بلطف. لعلك نسيت الموضوع، ولعله لم يفارق عقلك. ولكنك لن تعاود الحديث عنه اليوم. سألتني:

– حسنًا إذًا! أترغبين في السباحة؟

فمع حلول الساعة الواحدة، ووصول الحرارة إلى ذروتها، عاد أغلب النزلاء إلى حجراتهم، إما لتناول الغداء، أو لأخذ القيلولة. أما نحن، فركضنا نحو البحر، ومع كل خطوة كانت أقدامنا تشتعل من لهيب الرمال. ناديتني قائلًا:

- أنا أسرع منكِ!

ولكني لحقتُ بك، ثم سبقتك، لأنني أنا الأسرع. أخذتُ أركض بخطوات كبيرة نحو البحر، حتى فقدتُ توازني وسقطتُ في الماء، وإذا بك تقفز من فوقي، فصرختُ قائلة:

- يا لك من مجنون!

ثم صفعتك على مؤخرتك.

⌘⌘

تعالت ضحكاتنا عندما ركبنا قارب الدواسة، شعرت أنني سأنفجر من فرط السعادة.. في التو واللحظة.. لا أعلم لماذا غمرني هذا الشعور.. هل أنت السبب؟ أو ربما الأدرينالين؟ أو لعلني فعلًا سعيدة.. قلما نمر بتلك اللحظات في حياتنا.

⌘⌘

لم تحتمل حروق الشمس التي أصابتكَ، فعدتَ إلى الغرفة، حيث دلَّكتَ ظهرك بملطف الجلد، وشغلت المروحة. ولكني ظللت على الشاطئ لبعض الوقت.

عندما عدتُ إليك، وجدتك تتألم على السرير، فصفعت الباب من شدة استيائي، لأنك دائمًا تتعرض لتلك الحروق، ولا تستخدم واقي الشمس بعناية، بل إنك لا تهتم بشراء نوع فعال من الأساس. قلت لك:

– أنا لست أمك. وأنت لم تعد طفلًا!

وما إن انغلق الباب، حتى ندمت على ردة فعلي العنيفة، وشعرت بالأسف تجاهك. لعلني أنا السبب في تلك الحروق، لأنني طلبت منك أن تبقى معي تحت أشعة شمس الظهيرة، فظللت مستلقيًا بجواري، لا نفعل شيئًا سوى أن نتصبب عرقًا، ونشرب "الأبيرول"، ونتبادل عبارات مقتضبة بين الحين والآخر. كان يمكنني حقًا أن أبقى وحدي.

لماذا صفعتُ الباب هكذا وسمحتُ لغضبي أن يصل إليك داخل الغرفة؟ أحيانًا أشعر أنك تثير غضبي وجنوني، ومرات أخرى أشعر أنني أهيم في عشقك، وأن حبي لك يفوق كل الحدود، وكأنه يكفي لشخصين. ماذا عنكَ أنت؟ هل تنتابك تلك الأحاسيس أيضًا؟ أتتساءل أحيانًا إن كانت مشاعرك تجاهي حقيقية، أم مجرد حالة مزاجية تسوقك من يوم لآخر؟

⌘⌘

شعرت بيدك على ظهري. فتحتُ عينيّ بصعوبة، ورأيتُ وجهك مشوشًا أمامي. كنتَ تمسك كيسًا ورقيًا صغيرًا مع كأسين من "الأبيرول". قلت لي:

– أحضرت معي بعض البطاقات البريدية. أيهم تريدين؟ "إيسولو في الليل"، أم "إيسولو في النهار"، أم "شاطئ إيسولو"، أم "الحياة الليلية في

إيسولو"؟ أم تلك المرأة العارية؟ أم "إيسولو في الخمسينيات"؟ أم ذلك الكلب على الشاطئ؟

لم تمت تلك البطاقات البريدية لعطلتنا بأي صلة. اخترت بطاقة "إيسولو" في الخمسينيات، وبطاقة الكلب. أخذنا نرشف من "الأبيرول"، ونكتب إهداءاتنا على تلك البطاقات، التي لم تعكس سحر "إيسولو" على الإطلاق.

سمعنا فتاة صغيرة تلعب في الرمل بجوارنا تقول:

- ليس هكذا، إنكَ تفعلها بشكل خاطئ!

حملتْ الفتاة قالبًا بلاستيكيًا على شكل سلحفاة، ثم ملأته بالرمال، وظلت تدق عليه بالجاروف قائلة:

- هكذا.. انظر!

اندهش الطفل من شكل السلحفاة المثالي الذي ظهر أمامه على الرمال. ثم أمسك بالقالب، وحاول أن يدق عليه بالجاروف، ولكن الرمال تطايرت مع الرياح، فقالت له الفتاة:

- يا لك من أحمق!

فجأة، وبلا أي مقدمات، سمعتك تسألني:

- أتعتقدين أن طفلنا سيكون لطيفًا مثلهما؟

مجرد التفكير في وجود طفل معنا يشوش أفكاري؛ أيادي صغيرة.. هشة.. عيناك.. شفتاي.. أسنانك.. ساقاي.. أنفك.. أذناي.. سلوكنا.. لغتنا.. كلمات لا نتبادلها إلا معًا.. ماما.. بابا.. فم صغير.. براز..

حفاضات.. بكاء.. صراخ.. الاستيقاظ في جوف الليل.. أو في السادسة صباحًا أيام الأحد.. أن تكون متاحًا طوال الوقت.. أن تطوي صفحة الاستقلال من حياتك.. أن تجد نفسك شيئًا فشيئًا لا تتحدث إلا عن طعام الأطفال وحفاضاتهم ومستلزماتهم. أتريد ذلك حقًا؟ مع العلم أن هذا العرض ساري، وغير قابل للإرجاع، لمدة لا تقل عن عشرين عامًا!

⌘⌘

وقفنا أمام البار نحتسي مشروب "الموهيتو"، بعد أن ملأنا كؤوسنا بالنعناع. شعرتُ بالكحول يتسلل إلى رأسي، ورأيتك تدخن سيجارة تلو الأخرى. تسلل الإيقاع إلى قدميك، فأخذتَ تتمايل بجسدك وتُحرك رأسك مع النغمات. ارتجَّ جسدي من قوة الإيقاع، فالموسيقى كانت صاخبة، لدرجة أننا كنا نصرخ في آذان بعضنا. وقفنا نراقب ساحة الرقص والراقصين، وإذا بالإيقاع يتسلل إلى ساقيّ أنا أيضًا. سمعنا أغاني:

"Mamboo No. 5" و "Blue (Da Ba Dee)" و "Sex Bomb" و "We No Speak Americano"

نحفظ تلك الأغاني كلها عن ظهر قلب، فأخذنا نغني معها. ولكن بعدما دوت أغنية "ماكارينا"، أمسكتَ بيدي، وأخذتني إلى الساحة، كي ننضم إلى راقصي تلك الرقصة الشهيرة؛ نحرك ذراعينا مثل الأمواج، ثم نصفق ونقفز في دوائر. علت ضحكاتنا، ولكن عينيك التصقت بمؤخرة امرأة غيري، ولم تلاحقني أنا. حاولتُ أن أهز خصري بقدر من التحفظ، لأنني لا أحب الرقص بالخصر، ولكن هكذا يرقصون "ماكارينا". شممت

رائحة عطر ذكوري لاذع، ليس عطركَ، بل عطر رجل آخر طويل البنية، وعريض المنكبين. ابتسم لي، وعيناه تتفحصان جسدي كله، وبدا عليه الإعجاب بما يراه. كلمة واحدة منه كانت تكفيني كي أخرج معه إلى الشاطئ، حيث لا يوجد سوانا؛ أنا وهو.. تتسلل حبات الرمل أسفل ملابسنا، دون أن نسمح لها أن تفرق بيننا؛ أنا وهو.

أما أنا وأنت، فهناك عدة أشياء تفرق بيننا؛ إما مائدة، أو تليفزيون، أو سيجارة، أو وجبة عشاء، أو مشاغلي، أو مشاغلك.. هناك عدة أشياء تفرق بيننا، لدرجة أنني أحيانًا لا أراك.. وها هي مؤخرة تلك المرأة تفرق بيننا الآن.

شعرت أن الساحة تدور بي، فأطلقت العنان لخصري، وتركته يهتز بكل أريحية، في حين اخترقت نظراتي ذلك الرجل الوسيم. كنتَ ترقص بعيدًا عني، يقل مشروبك وتزداد حالة سكرك. وعندما عدنا إلى البار، اقتربتَ مني وبدأتَ ترقص معي، ثم مررتَ بيدك على ظهري، وأدخلتها في سروالي. كانت عيناك شبه نائمتين، تملؤهما العروق الحمراء، وابتسامتك شرهة. أعلم أنك لا تبتسم هكذا إلا وأنت سكران. التصقت أنفاسك الحارة بكتفي، وفاحت برائحة النبيذ والسجائر. أخذتَ تقبلني، وأدخلت لسانك في فمي، كما لو كنتَ تلتهمني. ولكني كنت أفكر في الرجل الآخر، وحاولتُ أن أتصدى لصولات وجولات لسانك، ولكنني فشلت في ردعها، فاستسلمت لها. وبعد ذلك، أخذت تلعق لساني – أعلم أيضًا أنك لا تفعل تلك الحركة إلا وأنت سكران. دفعتك بعيدًا، وشربت "الموهيتو" حتى آخر قطرة، ثم طلبت كأسًا آخر، مع جرعة إضافية من الكحول. اتكأتُ على البار، وأخذتُ أراقب النادل، وهو يعد المشروبات. وإذا بي أشعر بساقيك تلتصق بمؤخرتي، ثم قلت لي:

– هيا نعود إلى الغرفة!

– دعني وشأني! أنت سكران!

– وأنتِ لستِ كذلك؟

التصق جسدك بي أكثر، وتسللت يداك بين ساقيّ، واصطدمت أنفاسك في رقبتي. أردتُ أن أصرخ في وجهك، ولكني لم أقل شيئًا، فدفعتك بعيدًا وجلستُ على الكرسي مرة أخرى.

⌘⌘

جاء إلينا بائع الورد، ولكني هززت له رأسي، فقال لي:

– وردة جميلة، أيتها الجميلة!

أهديتني الوردة بابتسامة، وكأن كل شيء قد صار على ما يرام. أخذتها منك، وقضمت رأسها، ثم بصقتها في وجهك، فصرخت قائلًا:

– أيتها البقرة المتخلفة!

وبعد أن شربتُ كأسين من "التيكيلا"، سمعتك تسألني:

– ماذا أعني لكِ؟

ثم أمسكتني من ذراعي بقوة، وكررت سؤالك:

– ماذا تعني لكِ تلك العلاقة؟

اشتدت قبضة يدك، ثم صرختَ قائلًا:

– تحدثي معي، توقفي عن الشرب!

أخذتَ مني كأس "التيكيلا" وشربته، ثم قلت:

- الآن اتضح لي كل شيء.. أنا مجرد ممسحة لقدميك.. لذلك لا تتحدثين معي أبدًا عن المستقبل.. ولا تريدين أن تسكني معي.. ما مصير علاقتنا هذه؟ هيا ارحلي! ما دمت تظنين أنني وغدٌ تجاهك.. تريدينا أن نظل ثابتين في مكاننا.. وألا نخطو أية خطوة إلى الأمام.. ما هذا؟ لقد هدمتِ كل شيء.. هدمتِ علاقتنا!

انصرفتْ أذناي عن حديثك شيئًا فشيئًا، حتى صرتُ لا أسمع سوى كلمات أغنية فريق "Gipsy Kings"، فشربت "الموهيتو" كي أتخلص من مذاق "التيكيلا"، ثم عدتُ إلى ساحة الرقص، وأخذتُ أدق الأرض بقدميّ، وأهز خصري مع كتفيّ طوال السهرة، حتى دوت أغنية رومانسية لـ"برايان آدمس"، فوجدت نفسي أقف وحدي، بينما تعانق العشاق وتمايلت أجسادهم مع نغماتها.

نظرت نحو البار، فلم أجد سوى النادل واقفًا وحده يحتسي شرابه، بعد أن غادر الجميع، حتى أنت.

خرجتُ من المكان، فوجدتك جالسًا على الرصيف بجوار المدخل تدخن سيجارة، وما إن وقعت عيناك عليّ، حتى تركت مكانك، فناديتك قائلة:

- توقف!

وكأنني مراهقة في عمر الرابعة عشر، تُحدث جلبة في الشارع، ولكننا لم نعد مراهقين.

أردت أن أصرخ قائلة: "نحن بالغان.. أنت الذي تتصرف بسذاجة.. لم أعد أحتملك، ولم أعد أحتمل علاقتنا.. أريد أن أستقل أقرب سيارة كي أعود إلى بيتي"، ولكني لحقت بك وأمسكت ذراعك بقوة. وإذا بك تزداد غضبًا وتدفعني بعيدًا، ثم تمضي في طريقك مترنحًا. سألتك:

– لماذا تتصرف هكذا؟

بدا صوتي باكيًا، تمامًا مثلما كان، عندما تشاجرنا لأول مرة في عمر السادسة عشر. وقف شابان بجوار أحد المتاجر، وأشارا بأصابعهم تجاهي، يسخران مني. انهمرت دموعي، وذابت "الماسكارا" على وجهي. صرخت فيك قائلة:

– توقف!

لكنك لم تتوقف، ولم تنبس ببنت شفة. بل لم تنظر إليّ من الأساس، وكأنك لن تبالي إن خرجت من حياتك بلا عودة.

ظللت ألاحقك، محاولة أن أمسك ذراعك مرارًا وتكرارًا، إلى أن ركضت ووقفت أمامك ولم أسمح لك أن تستمر في الهرب. عانقتك بقوة على الرغم من أنك حاولت أن تتحرر مني، ولكني ظللت متمسكة بك، حتى شعرت بعناقك، وإن كنت أعلم أنك لم تقصده.

قلت لك:

– أنا آسفة.

ولكني لم أعرف سبب اعتذاري. فقد طفح كيلي منك.. اليوم.. بل ربما لفترة طويلة.. أو ربما إلى الأبد. ولكني وددت أن أعود معك إلى الغرفة، فهذه آخر ليلة لنا هنا.

قلت لي:

- لا بأس!

أخذنا نترنح في طريقنا إلى الغرفة، حتى ألقينا بأنفسنا على السرير. حررتني من ملابسي؛ البلوزة، ثم السروال، ثم ملابسي الداخلية. كنتُ متعبة للغاية وأردت أن أغمض عينيّ، ولكن يدك ظلت تتحرك فوق جسدي العاري، ثم لحقها لسانك الذي ظل يلعقني. ولكني لم أشعر بأي نشوة، بل فقط بلسان رطب يلعقني بحركات دائرية.

وبعد أن ظننتَ أنك أتممت مهمتك على أكمل وجه، خلعتَ السروال، وضاجعتني. ولكني أيضًا لم أشعر بأي شيء، مجرد ألم خفيف، وحركاتك التي بدأت بطيئة ثم ازدادت سرعتها. علتْ أنفاسك، حتى صرت تتأوه مثل الحيوانات، دون أن تنتبه إلى أنني استلقيت أسفل منك بلا حراك. بدوت لي وكأنك حيوانٌ صغير، ربما أرنب. وبعدما انتهيتَ، ارتسمت على وجهك ابتسامة راضية، بينما شعرتُ أنا بحيواناتك المنوية تتدفق داخلي، فتسلل الدفء إلى جسدي، ولكنه لم يصل إلى قلبي.

تباطأت أنفاسك وانتظمت، إلى أن تحولَّتْ إلى شخير خافت. ومع بزوغ الفجر وزقزقة الطيور التي لا تحتملها الآذان، دفعتك بعيدًا عني، على أمل أن أوقظك، ولكنك كنت متعمقًا في النوم، وما كنت ستستيقظ، حتى ولو

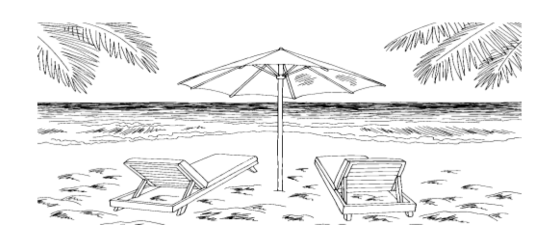
صرختُ في أذنيك بأعلى صوتي. كان فمك مفتوحًا، ووجهك مسترخيًا، لدرجة أنني لم أعد أرى تجاعيدك الرفيعة.

عندما تنام تبدو كالطفل الصغير!

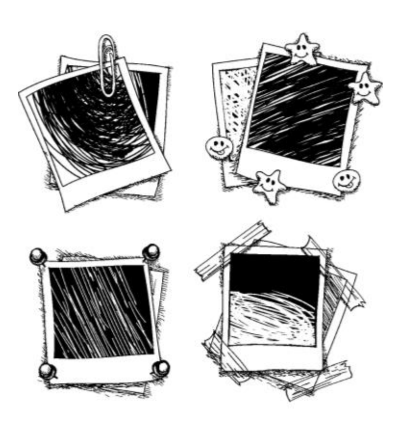
فتحتُ باب الشرفة، حيث فاح الهواء برائحة الملح والمناشف الرطبة. رأيتُ البحر يقذف أمواجه على الشاطئ، وتراءى لي في الأفق نورٌ منعكسٌ على البحر، بدا أصفر اللون، ثم صار برتقاليًا، وبعدها ورديًا، ثم أحمر. لمعتْ السماء بمختلف الألوان، وبدت الشمس ككرة صغيرة، تصعد إلى أعلى رويدًا رويدًا. وعدتني مرارًا وتكرارًا أن نذهب إلى الشاطئ معًا، وأن نتأمل معًا شروق الشمس، ولكنك كل مرة تختلق حجة جديدة.

أردت أن أشعر بالرمال النقية أسفل قدميّ، وببرودة البحر في الصباح الباكر. أردت أن أتأمل أولى القواقع الملقاة على الشاطئ ولا أحد سوانا.. هناك...

ولكننا على الأرجح لن نحتمل أن نكون وحدنا في حضرة البحر!



الفصل الأول



جلستُ مع "لوكاس" و"مارلينا" نشاهد صور الرحلة؛ صورة للفندق بالطول، وأخرى بالعرض، ثم صورة لحمام حجرتنا، وصور أخرى لسريرنا، وشاطئنا، والمظلات، وثمار جوز الهند، وصحن "السباجيتي" مع صلصة المحار، وبيتزا "ديافولا"، حتى ظهرت فجأة صورة لمؤخرتي، فقلتُ لكَ:

- "جورج" ما هذا؟

فناديتني من المطبخ قائلًا:

- هناك فيديو لكِ أيضًا!

تعالت ضحكات "لوكاس" و"مارلينا". ولكني حاولتُ أن أغير الموضوع، فاستكملتُ لهما حكاياتي عن الرحلة، وأنا أنتقل بسرعة من صورة إلى أخرى، ظهرتْ صورة لنا على متن الدراجة المزدوجة، ثم صورة لك وأنت تتناول الآيس كريم، وأخرى لك وأنت مدفون في الرمال، ثم صورة لي على وسادة العوم الهوائية، ثم منظر الشاطئ من شرفتنا، وأخيرًا صورة لك مع رجل الإنقاذ، حاملًا في يدك طوق النجاة، ووجهك شديد الاحمرار، فقلت لهما:

– أصيب "جورج" بحروق الشمس، كالعادة، وظل راقدًا في الحجرة مثل الأطفال.

فناديتَ من المطبخ قائلًا:

– محض هراء!

ولكني استطردتُ قائلة:

– وعندما استأجرنا الدراجة، تشاجر مع أحد المعارضين لـ"سيلڤيو برلسكوني"، فرمقنا الرجل بنظرة شديدة الغضب. وفي مطعم البيتزا، تقمَّص دور المواطن الإيطالي.

أخذتُ أحكي بعض المواقف، ولا أنكر أنني كنت أميل إلى المبالغة بعض الشيء، لدرجة أننا لم نستطع أن نكتم ضحكاتنا عليك. وفجأة سمعنا قرعًا في المطبخ، فعلمتُ أنك استأت مني، وستوبخني لأنني أسخر منك، وأسعى إلى تسلية الآخرين على حسابك. وبالفعل، ناديتني من المطبخ قائلًا:

– حبيبتي، أحتاج إلى مساعدتك!

وما إن دخلتُ إليك، حتى وجدت وجهك داكنًا، وجبينك متجعدًا. قلت لي:

- توقفي عن الإساءة إليّ!

- أنا لا أسئ إليك، أنا أحكي حقائق!

- حقائق؟ فلنرَ ردة فعلك، إذا جلستُ أنا مع أصدقائك أسخرُ منك، بينما تقفين أنتِ في المطبخ لإعداد الطعام؟

قلت لك:

- أنت تبالغ!

فقاطعْتَني قائلًا:

- خذي هذين الصحنين، وسأتولى أنا بقية الصحون.

خرجتُ حاملة الصحنين، وحرصت على أن أرسم ابتسامة على شفتيّ. قلتُ للضيفين:

- بالهناء والشفاء.

وإذا بـ"مارلينا" تقول لزوجها:

- ليتك تطهو لي الطعام هكذا!

فأجابها "لوكاس" قائلًا:

- أنتِ لا تطبخين لي من الأساس.

أزاحت "مارلينا" نظرها عنه باستياء، ثم انحنت قليلًا فوق السمكة واستنشقتها قائلة:

- يا لكِ من محظوظة! أدائمًا يدللك "جورج" هكذا؟

فأجبتها:

- نعم، أنا بالفعل محظوظة.

فقالت:

- عليكما أن تفتتحا مطعمًا خاصًا.

فسألتُها:

- "جورج" سيطهو الطعام، ولكن ماذا عني أنا؟

فقال "لوكاس":

- ليس عليكِ أن تفعلي أي شيء. ستكونين الرئيسة، وستتولين مهام القيادة والتنظيم.

أمسكتُ بالملاحة ومطحنة الفلفل، وأخذتُ أرش بهما على السمكة، كي أستفزك، لأنني أعلم أنك لا تحب أن تضيف أي بهارات بعدما تنتهي من إعداد الطعام. وبالفعل رأيتك ترمقني بنظرة محذرة، ولكني تجاهلتك، فقلتَ لي:

- إنكِ تدمرينها هكذا!

فرفعت كأسي، وابتسمت لكَ قائلة:

- في صحتنا!

كنا نتنافس في سرد القصص المضحكة التي مررنا بها في "إيسولو". أخذتُ أسرد أدق التفاصيل، وأكرر الكلام، وأستطرد في الحديث، لأنني كنت أعلم أننا إذا غيرنا الموضوع، لن نتحدث سوى عن صندوق الادخار السكني، وتمويل الإسكان، والوحدات السكنية، وشقق التمليك، والقروض، والإيجارات.

تحدثنا وعلت ضحكاتنا، ووضع "لوكاس" ذراعه حول كتف "مارلينا"، ومالت هي برأسها على صدره. ثم وضعتَ أنت أيضًا ذراعك

حول كتفي، ووضعتُ أنا أيضًا رأسي على صدرك. فجلسنا أمامهما، وكأنهما مرآة لنا. ولكني لا أدري، لماذا بديا أكثر راحة وأكثر تحابًا. أما أنا وأنت، فكنا مجرد واجهة زائفة لحبيبين سعيدين.

سألتني "مارلينا":

- أتقيمان دائمًا في الفندق نفسه؟

أجبتها:

- نعم، ولمَ لا؟

كان صوتها يحمل نغمة مستنكرة.

إذا حكينا لهما عن بحر "إيسولو"، يقولان إن بحر "توسكانا" أجمل، وإن شواطئ "إيسولو" لا تضاهي شواطئ "بالي". وإذا حكينا عن توافد السياح إلى "إيسولو"، يقولان إن اليونان أفضل، لأن السياح بها أقل، وإنهما يفضلان السفر إلى الأماكن البعيدة. أما إذا حكينا عن ارتفاع أسعار الطعام في "إيسولو"، فيقولان إن الطعام في كرواتيا لا يختلف عن إيطاليا، ولكنه أقل ثمنًا. وكأنهما خبيران في العطلات المثالية.

قالت "مارلينا":

- لماذا لا تسافران بعيدًا؟

وافقها "لوكاس" قائلًا:

- صحيح، فأنتما دائمًا تترددان على المكان نفسه.

فقلتُ لهما:

- لست أنا السبب. "جورج" هو الذي يصر دائمًا على السفر إلى "إيسولو".

فقلتَ لي:

- لأنني أريد أن أدَّخر بعض المال حتى نتمكن من تشييد بيتنا الخاص. ما الداعي للسفر بعيدًا، إن كان البحر على بعد ثلاث ساعات فقط؟ إن كنتِ ترغبين في السفر، فلتفعلي ذلك، ولكن من دوني.

قلتُ لك مستنكرة:

- بيتنا الخاص! دائمًا تتحدث عن بيتنا الخاص!

فقلتَ لي:

- نعم، دائمًا أتحدث عن بيتنا الخاص! لأنني أريد أن أكوِّن أسرة.

حاولتُ أن أغير الموضوع قائلة:

- أيريد أحدكم كأسًا من النبيذ؟

فقالت "مارلينا":

- بالمناسبة، لقد حصلنا على تمويل سكني، وسنبدأ في تشييد بيتنا.

فقلتَ لها:

- يا له من خبر رائع! هل وجدتما مهندسًا معماريًا؟

فأجابتك:

- الأسعار باهظة، ونحن لا نقدر على تحمل تلك التكاليف.

فقلتَ لهما:

- لستما في حاجة إلى مهندس معماري. يسعدني أن أجهز لكما التصاميم، وأن أعرض عليكما سعرًا مناسبًا.

قال "لوكاس":

- صارت "مارلينا" تعكف طوال الوقت على مشاهدة التصاميم.

فقالت "مارلينا":

- نعم، هذا أقصى ما يمكنني فعله؛ أن أشاهد التصاميم. فالمشاهدة مجانية، أما التنفيذ فيقتضي تكاليف باهظة.. تكلفة النوافذ في حد ذاتها تستوجب ثروة طائلة.

طمأنها "لوكاس" قائلًا:

- لا تقلقي، سيكون بيتنا جميلًا. ماذا عنكما؟ ألن تسكنا معًا؟

أجبتُه:

- أرجوك لا تطرح هذا السؤال! أيمكننا أن نتحدث في موضوع آخر؟

فقالت "مارلينا":

- كلا! لماذا؟

وإذا بكَ تقف من مكانك قائلًا:

- أخبريهما لماذا ترفضين أن نسكن معًا.. لأن الوضع رائع كما هو عليه!

احمر وجهك، وبدا الغضب في عينيك. اتكأت على ظهر الكرسي قائلًا:

- ماذا عنكما؟ كيف كانت الأمور بينكما؟ هل ترددت "مارلينا" كثيرًا قبل أن توافق على السكن معك يا "لوكاس"؟

تنحنح "لوكاس" قائلًا:

- لا نريد أن نتدخل في شؤونكما يا "جورج".

فما كان مني سوى أن قلت:

- توقف يا "جورج"! دعنا نتحدث حول هذا الأمر لاحقًا!

فقلتَ لي:

- لاحقًا، لاحقًا، لاحقًا! لم أعد أحتمل تلك الكلمة!

⌘⌘

عندما غادرا، جمعت الأكواب من المائدة، ثم لحقتُ بك في المطبخ، حيث كنتَ تغسل المقالي والأواني. عم الصمت أرجاء البيت. أردت أن أكسر تلك الحالة، ولكني لم أدر ماذا عساي أن أقول أو أفعل. بدا ظهرك وكأنه سور كبير يفرق بيننا. ما من كلمة واحدة يمكنها أن تجمع بيننا. أنصتُّ إلى تدفق مياه الصنبور وتخبط الأواني. فمع رحيل "مارلينا" و"لوكاس" تسرب الدفء خارج البيت، وتركَنا وحدنا بلا أنيس. حدقتُ في ظهرك، وراقبتُ تحركاتك. انتظرتُك حتى تتفوه بأي كلمة، كي تنتشلنا من حالة الصمت التي سيطرت علينا، ولكنك لم تلتفت إليّ من الأساس.

⌘⌘

نحن "جورج وآندي"؛ متلازمان معًا، فقد صرت مقترنة بك دائمًا. عندما لا تكون معي، يسألني الآخرون عنك أولًا، ثم يسألون عن أحوالي.

لطالما كنتَ ملازمًا لي في كل خطوة مهمة من حياتي؛ عندما سكنت في شقتي الأولى.. وعندما تخرجت من المدرسة.. وعندما سافرت لأول مرة.. وعندما حصلت على أول وظيفة.. علَّمنا بعضنا كيف نمارس الحب، وكيف نتبادل القبلات.. كنَّا طفلين عندما وقعنا في الغرام.. وها نحن الآن قد صرنا كبارًا.

نحن نعرف بعضنا عن ظهر قلب، أكثر من أي شخص آخر.. آلف كل تفاصيل جسدك.. ولكن هناك شيء تغير بيننا.. هناك شيء ضاع منا!

ازدادت لحظات الصمت التي تسود بيننا، وكأننا أغراب. عندما أستلقي بجوارك على السرير، تبقى ثابتًا بلا حراك، ولا تتفوه بأي كلمة. أعلم أنك تكون مستيقظًا، ولكنك تتظاهر بالنوم، كي تتجنب الحديث معي.

تصبح أنفاسك الإشارة الوحيدة لوجودك.. أسمعها تلتهم الغرفة بأسرها.. لم أعد أستلقي بالقرب منك، بل على حافة السرير، التي لم تعد تسعني.. ولم أعد أشعر بدفئك، بل ببرودة الحائط.

صرت أتجنب الحركة وأتنفس بهدوء.. أتصلب في مكاني، وكأنني بجوار حيوان مفترس.. أذرف الدموع، ولكني أقمع بكائي، كي لا تسمعني.

⌘⌘

جلستُ أمام مكتبي، حيث تراكمت مهامي. فتحتُ "اللابتوب" وأخذتُ أغير الخطوط، والألوان، ومواضع الصور والنصوص. وضعت على اليسار صورة رجل ضاحك، يحمل حبيبته فوق كتفيه، ثم كتبت على ناحية اليمين: "الحياة أقصر من أن تمضي في مسافات طويلة، فالجمال على مرمى البصر، والسعادة في متناول اليد". كَبَّرت خط كلمتي "أقصر" و"طويلة"، ثم انتقلت إلى الصفحة التالية، حيث وضعت صورة لامرأة تعلِّق بالونًا على شكل قلب حول إصبع قدم زوجها، في حين رقد هو في السرير نائمًا. أرفقت الصورة بالنص التالي: "عندما تزداد خفقات القلب، تتهافت دموع العين". بحثت عن صورة قلب تتناسب مع هذا النص، فوجدت صورًا عديدة؛ قلوب ضاحكة، وأزواج، وأمهات، وأطفال يشعُّون بهجةً، وقلوب من الورود، وورود من القلوب، ويدين على شكل قلب فوق

بطن امرأة حامل، لدرجة أن شاشة اللاب توب صارت تشِّع بدرجات الأحمر والوردي، فأغلقت الجهاز، وذهبت إلى مطبخ المكتب.

سألتني "ساندرا":

- ما بكِ اليوم لا نسمع لكِ حسًا؟

فأجبتها:

- إنني حقًا مشغولة للغاية.

أشعلتُ سيجارة وأدرتُ آلة القهوة كي أتجنب الحديث معها.

⌘⌘

وقفتُ أمام المرآة أتأمل عينيّ وأحاول أن أمحو أي تعبيرات من وجهي؛ القلق، الغضب، الفضول، الحزن، الفرح، الشك. حاولتُ أن أتخلص من التوتر، حتى تختفي التجاعيد من جبيني. تأملتُ العينين اللتين نظرتا إليّ، واللؤلؤتين الداكنتين، اللتين بدتا وكأنهما كوكبان صغيران يحومان في فضاء ناري.

بشرتي ناعمة وملساء، يتخللها بعض النمش البسيط. وشفتاي، ورديتان ومنحنيتان إلى أعلى. أما شفتي السفلية، فهي سميكة، وبها ندبة صغيرة منذ طفولتي. أسناني بارزة بعض الشيء، تمامًا مثل أذنيّ، فهما أيضًا بارزتان قليلًا. كما أن فتحتيّ أنفي كبيرتان، ووجنتيّ ممتلئتان، وجبهتي مرتفعة قليلًا، تتخللها ندبة رفيعة. أخذتُ أتفحص أدق تلك التفاصيل. وعلى الرغم من أنني أعرفها جيدًا، فإن وجهي بدا لي غريبًا. حاولت أن أمعن النظر في نفسي، أن أغوص داخل أعماقي، ولكني كنت مجرد سطحٍ أملس في المرآة.

تخيلت أننا أنجبنا طفلين؛ صبي، وفتاة، حيث شيدنا بيتنا الخاص، وحرصنا على أن تكون به شرفة واسعة، وحديقة كبيرة، تكسوها أشجار السرو. طليْنا باب المدخل باللون الأزرق، وزيَّناه بزخارف بيضاء، ووضعنا شجرة ليمون في حجرة المعيشة.. تخيلت أنني في مدريد، أعيش وحدي في شقة صغيرة، أشبه بصندوق الأحذية، حيث أعمل في مجال الفن، وأقيم المعارض الفنية في صالات صغيرة.. تخيلت أنك تركتني، واختفيت من حياتي إلى الأبد. وإن صادفتك في طريقي، نتبادل تحية عابرة.. تخيلت أنني تركت كل شيء هنا، كي أسافر في رحلة حول العالم على مدار ستة أشهر.. تخيلتك تتزوج من أخرى، وأنني أرى صورة زفافك في الجريدة، فأقول لنفسي، إن العروس تليق بكَ، وإن ملامحها تشبهك، كما لو كانت شقيقتك.. تخيلت أننا ننتقل إلى إسبانيا معًا، حيث نقطن في بيت يطل على البحر.. تخيلت أنني أقذف جميع أغراضك من النافذة.. تخيلت أننا بلغنا من العمر ستين عامًا، بعد أن فارق أبواك الحياة، وترك أبناؤنا بيتنا، وصرنا نعيش وحدنا في بيت أبويك، وبالكاد نتبادل معًا أطراف الحديث.. تخيلت أنني أقيم علاقة جنسية مع رجل آخر.. تخيلت أنني أقيم علاقة جنسية مع امرأة.. تخيلت أنني وجدتك ميتًا على فراش الزوجية.

⌘⌘

عندما جئت إليّ، كنتُ مستلقية على فراشي. سمعتك تحرك المفتاح داخل الباب بهدوء، وتتحرك بحذر داخل الشقة. وبعدها، سمعتك في الحمام تنظف أسنانك، ثم تطفئ الأنوار وتتوجه إليّ ببطء. ولكن مع صرير خطواتك على الأرض، اجتاحني ضيق في صدري.

استلقيتَ بجواري على السرير، وأخذتَ تتنفس بعمق وانتظام. أعلم أنك كنت تراقبني في منامي، وتتساءل عما يجول بخاطري. أردتني أن أستيقظ، كي تُظهر لي أنك ما زلت متمسكًا بعلاقتنا، أو أنك مستعد أن تعمل على إصلاحها، أو أنك على الأقل تحرص على إنقاذ يومنا، وأنك تحافظ على اتفاقنا؛ أن نقضي معًا ثلاث ليالٍ في شقتي، وأربع ليالٍ في شقتك.

أردتُ أن أقول شيئًا، لكن الكلمات علقت في حلقي، وكأنها كتلة ثقيلة تغرق داخل أعماقي، وتضغط على صدري. أي كلمات يمكن أن تغير وضعنا هذا؟ أي كلمات يمكن أن تزيل حالة الصمت التي سادت بيننا كي تعود الأمور إلى نصابها مرة أخرى؟

سنظل أنا وأنت ندور في الحلقة نفسها.. مرة بعد مرة.. حتى يستسلم أحدنا، ويرحل.

كم أود أن أضمك إليّ. أود أن أقول لك، إن كل شيء سيكون على ما يرام. لكن هل سنكون بالفعل على ما يرام؟ لقد صرت تتأخر في المكتب أكثر من ذي قبل. وأنا أيضًا صرت مشغولة، ولا أعود إلى المنزل قبل الثامنة مساءً. صارت محادثاتنا مقتصرة على العبارات التالية: "متى ستعود إلى المنزل اليوم؟"، "هل تناولتَ شيئًا؟"، "هل سآتي إليكَ اليوم؟" وفي الليل نستلقي على فراشنا في صمت تام.

⌘⌘

ها نحن نجلس مع أسرتك في الصالون. أنت بجواري، ومعنا والدتك، ووالدك، وأخوك، وخطيبته. أحضرنا معنا زجاجة نبيذ باهظة الثمن،

وكأسًا كبيرًا منقوشًا عليه رقم "60"، احتفاء بعيد ميلاد والدك. صحيح أن طقوسنا في أعياد الميلاد لا تتغير، ولكن هذا اليوم كان بالتأكيد مميزًا للغاية، لذا حرصنا جميعًا على انتقاء هدايا خاصة.

جلسنا معًا حول المائدة، حيث تحدثنا عن الطقس، وعن الطعام، وعن أحدث الشائعات التي تحوم حول معارفنا؛ "فُلان سيُقبل على الزواج"، و"فُلان بدأ في تشييد بيته الخاص"، و"فُلانة حامل".

تأملتك وأنت جالس كعادتك بجوار والدك. كم أنتما متشابهان؛ في القوام، وفي طريقة الكلام، بل وحتى في طريقة تناول الطعام، فهو يمضغ الطعام بفم مفتوح مثلك تمامًا. وعلى الرغم من أنني قلت لكَ مرارًا وتكرارًا أنني لا أحتمل ذلك، خاصة عندما أسمع صوت مضغاتك، فأنت لا تقلع أبدًا عن هذه العادة. لاحظت أيضًا أنك كلما تقدمت في العمر، كلما حاولت أن تشبهه أكثر وأكثر، ففي ذلك اليوم كانت ملابسك شبيهة بما يرتديه. صحيح أنك كنت أكثر عصرية، ولكنك ارتديت سروالًا رماديًا مثله، وقميصًا أزرق فاتح، على الرغم من أنك لا ترتدي القمصان أبدًا.

كالعادة، حرص "دانيال" و"آنا" على شراء هدية باهظة الثمن، ليُثبتا قدراتهما المادية أمام الجميع. قال والدك كلما فتح إحدى الهدايا:

- إنكم حقًا تعرفون ما أحب!

نبعت ضحكاته من القلب، وبرقت عيناه من فرط السعادة.

تحسنت حالتك المزاجية، حيث علا صوتك، وانغمست في أحاديثنا التافهة. صرتَ تلقي دعابة تلو الأخرى، وحرصتَ على وضع ذراعك حول كتفي. فعندما نكون مع عائلتك، تختلف تصرفاتك بعض الشيء.

في طريقنا إلى عيد ميلاد والدك، اقتصر حديثنا في السيارة على بضع عبارات معتادة، ثم عاد الصمت بيننا مرة أخرى. وبعدها، شرد كل منا في خياله، دون أن يبوح للآخر بأي شيء. وعندما جلسنا مع عائلتك، كنتَ تتحدث معي، ولكن بطريقة غير مباشرة؛ من خلال الآخرين. كنتَ تلقي عليّ الأسئلة، فقط كي يسمع الآخرون إجاباتها. وكنتَ تقبل وجنتي، فقط كي تظهر للآخرين مدى سعادتنا، ولكي تثبت لهم أننا ثنائي مثالي. كنتُ أبتسم، ولكني لم أبتسم لك. وكنتُ أجيب على أسئلتك، وأشاركك في الحديث، ولكني لم أتحدث معك أنت، بل مع الآخرين.

انقسمت المحادثات في اتجاهين، حيث تحدث والدك معك أنت و"دانيال" عن بيت الزوجية، وتحدثت والدتك مع "آنا" عن فستان زفافها وتنظيم قاعة الحفل. أما أنا، فجلستُ بين الطرفين، دون أن أنضم إلى أي منهما. سمعتُ "آنا" تقول: "في زفافنا كذا وكذا"، ثم التفتُّ إلى والدك، وسمعته يقول: "علينا هدم الجدران". شردت بخيالي، حيث وجدتني أستحضر احتفالًا آخر، ربما عيد ميلاد والدتك. كنت أحمل أزهارًا كثيرة، ولكن أشواكها جرحت يدي، لدرجة أنني كدت أسقطها. أكان ذلك يوم عيد ميلاد والدتك، أم شخص آخر؟

أعادني صوت والدتك العالي إلى رشدي. سمعتها تسألني:

- ما رأيكَ يا "آندي"؟ لافندر أم روز؟

دائمًا تتحدث عائلتك عن المواضيع نفسها. يدلون بدلوهم في كافة أمورنا وتصرفاتنا، ويتدخلون في أدق تفاصيل حياتنا؛ لا بد أن يكون فستان زفاف "آنا" أبيض اللون، ولا بد من دعوة أخت جدتك على الاحتفال، ولا بد أن تعزف الفرقة الموسيقية أغاني شهيرة. ثم جاء دورنا، حيث سألنا والدك:

- وماذا عنكما؟ ألا ترغبان في الزواج والإنجاب؟ أعتقد أنه قد حان الوقت لذلك، فأنتما لستما صغارًا بعد الآن.

تبعته والدتك قائلة:

- كم يسعدنا أن نصبح جد وجدة!

فقال "دانيال":

- دعاهما وشأنهما!

ولكن والدتك استطردت قائلة:

- على الأقل اسكنا معًا، فأنتما معًا منذ فترة طويلة.

نظرا إليك، ثم تبادلا بأعينهما بعض الكلمات، وبعد ذلك، نظرا إليّ. فقلت لهما:

- كثيرًا ما تتحدثان معنا حول هذا الموضوع، ومع كل فرصة تحاولان أن تثنياني عن رأيي.

كلما جلستُ وحدي مع أمك أجدها تخبرني مرارًا وتكرارًا، أنني يجب أن أعيش معكم في بيت العائلة، لأنه أكبر بكثير من أي بيت يمكن أن نشيده لأنفسنا.

قالت لك والدتك:

- دعني أتحدث معها.

وكأن الحديث حول هذا الموضوع سيكون أسهل إن كان بين امرأتين، وكأنها ستثنيني عن رأيي، أو تطرح جانبًا جديدًا لم أنتبه إليه حتى الآن.. وكأنها ستُتحفني بالحجة القاطعة، التي ستجعلني أتخذ قراري بلا رجعة. قالت لي:

- لا أفهم سبب ترددكِ هكذا. عندما نبلغ مرحلة معينة من العمر، علينا أن نستسلم للجانب الجاد من الحياة.

تبعها والدك قائلًا:

- عندما كنا في عمركما، كان قد مر زمن طويل على زواجنا، وكنا قد شيدنا منزلنا الخاص، وأنجبنا طفلين. انظرا إلى "دانيال" و"آنا"، فهما أصغر منكما سنًا وسيتزوجان قريبًا. ما المشكلة في أن تسكنا معًا؟ فأنتما معًا منذ عدة أعوام.

وجدتني أقول لهما:

- هلا تركتما هذا الأمر لنا؟

فقالت والدتك:

- كل ما نقصده هو أن علاقتكما لا بد أن تتطور. في مرحلة ما لن تسعفك ساعتك البيولوجية يا "آندي"، وحينها، سيكون قد فات الأوان.

أنتما الآن في السن المناسب للإنجاب. إن كبرتما في السن، ستفقدان الطاقة اللازمة لتربية طفل صغير، وحينها ستندمان، ولكن بعد فوات الأوان.

نظر الرجال إلى بعضهم، في حين استطردت هي قائلة:

- العائلة هي أهم ما في هذه الحياة. يجب أن تفرحا بوجود الأجداد في حياتكما. هناك كثيرٌ من الأجداد، الذين يحرصون على الاستمتاع بما تبقى من عمرهم، ولا يولون لأحفادهم أي اهتمام. لكننا لسنا كذلك، بل على العكس، نحن نتوق إلى رعاية أحفادنا كما لو كانوا أبناءنا. يمكنكِ يا "آندي" أن تعملي حينها بدوام جزئي. أعدكِ أن الأمور ستسير بمنتهى السلاسة. لِمَ كل هذا التردد والتريث؟

وإذا بك تقول، ولكن دون أن تنظر إليّ:

- هل فرغتما من الحديث؟ أيمكنكما أن تتركا هذا الشأن لنا؟ اليوم عيد ميلادك يا بابا.

ولكنك لم ترمقني بتلك النظرة، التي تشعرني أننا حلفاء.. تلك النظرة التي تطمئنني، وتؤكد لي أننا ننتمي إلى بعضنا، وأننا كالبنيان المرصوص، ولا يحق لأي شخص أيًا كان أن يتدخل في شؤوننا وقرارتنا.. تلك النظرة التي تقول لي: "دعيهم يتحدثون، ودعينا نفعل ما يحلو لنا".. تلك النظرة تلاشت، بعدما سيطرت ملامح الجدية على وجهك، تمامًا مثلما سيطرت على وجه والديك. تلك الملامح الجادة تستقر على زوايا الشفتين، وتترك آثارها على الجبين، بين العينين.. إنها تترسخ في لون العين، وتضفي عليها

وهنًا وفتورًا. كما أنها تنعكس على الإيماءات، فتطوح اليد، في حين يتفوه الفم بعبارات جادة.

ولكنك اخترقت أعماقي بنظرة حادة، جعلتني أفهم أن وقت الهدنة قد مضى، وأن صبرك، الذي يتغذى على ما تبقى من حبك لي، قد صار على وشك النفاد.

أمسكتُ بكأسي واستنشقت النبيذ، الذي كان يفوح برائحة حصا البان، والبلسان والفانيليا. ذكرني بنا، وبجلوسنا تحت مصابيح بيضاء في ليلة صيف دافئة في إيطاليا، نحتسي النبيذ ونضحك.. لماذا؟ لا أتذكر.

⌘⌘

عندما أغلقتَ الباب من خلفنا، بدت جدرانك قريبة من بعضها، وبدت شقتك أصغر، والغرف أضيق. صار بيتك أجرد، وأرضه باردة. كما صار وجهك شاحبًا، ونظراتك غائبة. تُرى، أين اختفى ذلك الرجل الذي وقعتُ في حبه؟ هل أخفيته تحت قميصك الأزرق الفاتح، أم وضعته بين جواربك البيضاء، أم حبسته في صندوق سيارتك الجديدة؟ صرت ملبوسًا برجل آخر يسعى إلى إرضاء الجميع، ويتوق إلى تحمل المسؤولية، ويرفض أن يقترف أي خطأ. التهم كيانك دون أن أدري، وأخذ يتسلل إلى مكنوناتك رويدًا رويدًا، حتى سيطر عليك بالكامل. سألتك:

– لماذا يتدخل والداك في شؤوننا؟ دائمًا يريدان أن يتحكما في حياتنا! لماذا لا تتصدى لهما؟ لماذا لا تطلب منهما ألا يتدخلان؟ أليست لديهما حياتهما الخاصة؟

تجنبتَ النظر إليّ، ثم خلعت حذائك، ودخلت المطبخ، فلحقت بك سائلة:

– لماذا لا ترد عليّ؟

أجبتني:

– لأنكِ تنبشين عن الحجج مرة بعد مرة.. ترفضين أن تسكني معي، وترفضين الزواج، وترفضين الإنجاب. هل فكرتِ بي ولو لمرة واحدة؟ إنك تظلمينني بكل خططك ومطالبك.

سألتك مندهشة:

– أنا أظلمك؟

رمقتني بنظرة أصابتني بالفزع، فلم يسبق لي أبدًا أن استشعرت هذا الغضب الكامن في عينيك، ولا هذا البريق اللاذع من اليأس. قلت لك:

– توقف عن الشكوى! هل تستمع حتى إلى نفسك؟ تارة تتصرف وكأن كل شيء على ما يرام، وتارة أخرى تشعرني أننا نقف على حافة الهاوية. أنا لدي شقتي المستقلة، وسأعيش فيها، شئت أم أبيت. كل ما أريد هو أن نكون سعداء معًا. أجمل ما في هذه الحياة هو كوابيس بالنسبة لك.

قلت لي:

– منذ أشهر وأنتِ تماطلين حياتي، بينما تمضين في حياتك قدمًا، وكأن شيئًا لم يكن، دون أن تخطريني إن كنتِ ستعيشين معي، أم لا. صرتُ في الخامسة والثلاثين من عمري، ولم تعد لدي طاقة لهذه الألاعيب. تصرفي كامرأة بالغة، وتوقفي عن التشبث بحياة لم تعد مناسبة لسنك منذ فترة

طويلة. لا تفكرين إلا في نفسك! بالفعل لا يمكن أن تكوني قادرة على تربية طفل صغير، فأنت لا تتركين أي مساحة لأي شخص آخر في حياتك. من الأفضل أن تظلي هكذا بلا أبناء. ومن الأفضل أن تظلي وحيدة، مع نفسك فقط، ولكن حتى حينها ستعجزين عن تدبير أمورك!

صرخت فيكَ قائلة:

- ماذا تقول؟ هل تسمع ما تقوله؟ تبًا لك! أنت لا تجيد أي شيء سوى الهراء!

احمر وجهك، وانتفخت العروق فوق جبينك، ولكنني لم أتوقف عن الصراخ، دون أن أدري إن كنت أصرخ فيك أم في نفسي. تسارعت نبضات قلبي، حتى خرجَتْ عن السيطرة. وارتعشت يداي من هول الغضب. خرجتُ من المطبخ، وأغلقتُ الباب من خلفي، ولكنه لم يصدر صريرًا قويًا، فأخذت أفتحه وأغلقه بقوة عدة مرات، حتى وجدت نفسي أمسك المقبض المكسور في يدي. فقط حينها، استفقت من تلك الحالة التي أصابتني.

غادرتُ بيتك، ونزلتُ السلالم وأنا أدب عليها بقدمي، كي يسمعني والداك. وحالما أغلقت باب المبنى، سمعتهما يفتحان باب شقتهما. كنت أعلم أن والدتك ستذهب إليك، كي تسألك عما حدث، وعن سبب شجارنا الدائم. وبعد أن تحكي لها كل شيء، ستضمك إليها قائلة: "ابني العزيز. ابحث عن غيرها. لماذا تستمر في هذه العلاقة؟".

وبعد ذلك سيأتي والدك أيضًا، وسيقول: "كنت أعلم منذ البداية أنها ستسبب لك المشاكل. عليك أن تقف في وجهها. لا يجوز أن تجاريها هكذا".

ربما ستهز رأسك وتقول: "معكما حق، ولكني أحبها".

أو ربما ستقول فقط: "إنني أحتاج إليها".

⌘⌘

كنتُ أستشيط غضبًا، ووددتُ أن أصفعكم على وجوهكم، خاصة أنت.

أردت أن أتجول داخل شقتي، لألقي بكل أغراضي على الأرض، وأقذف أغراضك من النافذة.. أردت أن أستقل قطارًا، وأرحل بعيدًا، وأغير كل شيء.. أردت أن أقول بالفم الملآن: "إنني قادرة على الاستغناء عنك، وعن حياتي معك. وعن والديك ومنزلكم القذر". ولكني لست أنا من تتفوه بهذه العبارات، بل الغضب الكامن في أعماقي.

تسببتْ تلك الأفكار في ألم جسيم ترسخ في صدري، ثم تسلل إلى رأسي. انهمرتْ الدموع على وجهي دون توقف، كما لو كنت فقدت جزءًا مني.

أنت لا تعرف الصبر.. تُفرِض كل شيء عنوة.. تُجبِر وتُرغِم، وتتمادى في ذلك. دائمًا ما تحاول أن تُخضعني إليك، حتى أنهار وأظل راقدة على الأرض.. حتى أفنى، ولا يتبقى مني سوى الخوف من الحياة، ولكنه سرعان ما سيلحق بي إلى الفناء.

عندما تركتْنا أمي، حبست نفسي في غرفتي لعدة أيام، آملةً أن ينهدم المنزل فوق رأسي.. لكنه لم ينهدم.. ولم ينهدم أي شيء.. بل مضت الحياة.. حتى هذه المرة.. لن ينهدم أي شيء.. وستمضي الحياة.. دائمًا وأبدًا.. معك أو من دونك.

حاولت أن أهدئ من روعي، ولكن رأسي كان يدق. توقفت يداي عن الارتعاش. وتوقفت الدموع، ولكني سمعت أنينًا خافتًا يخرج من فمي.

علمت بعدما سمعت نغمة الاحتقار في صوتك، ورأيت نظرة الازدراء في عينيك، أنني لو كنتُ أمامك، كنتَ ستلتفت بعيدًا، وتتركني وحدي، دون أن تكفكف دموعي، أو تضمني إليك.

استلقيت على حافة سريري وألصقت نفسي بالحائط البارد. حاولت أن أقول لنفسي إن وجودك مثل عدمه. ولكني سرعان ما تذكرت ابتسامتك اللعوبة، ونظراتك التي ترمقني بها، عندما تعرف ما يجول في رأسي.. تذكرت رائحتك، التي لا أشبع منها أبدًا، والشعر الأشقر خلف رقبتك.. تذكرت المائة واثنين وعشرين نمشًا، الذي يضئ وجهك مثل النجوم.. تذكرت يديك الناعمتين، اللتين تتجولان على جسدي.. كل جزء من جسدك هو ملاذي..

تردد صوتك في أذنيّ واستشعرت أنفاسك الدافئة على جسدي عندما نمارس الحب..

تذكرت كيف كنا نرقص معًا، حفاة القدمين وبلا موسيقى.. تذكرت كيف نقبل بعضنا في منتصف الشارع.. تذكرت كيف مارسنا الحب في بئر السلم، حتى كاد الجيران يكشفوننا.. تذكرت لذة التقاء أجسادنا العارية.. تذكرت وسامة ملامحك، ورقصك المضحك.. تذكرت كم أنت قوي وليِّن في الوقت نفسه.. تذكرت كيف تضحك، وكيف تسمح لنفسك أن تبكي وأنت معي.. تذكرت كيف تعلو نبضات قلبي.. تذكرت، كيف تضمني إليك، وتغمرني بدفئك.. تذكرت كيف تشعرني أننا ننتمي إلى بعضنا بعضًا.

مضت جميع لحظاتنا أمام عيني؛ كل رحلة، كل لحظة شجار، كل لحظة صلح. أخذت أبكي وأبكي، لأنني لا أقدر على التخلي عن حياتنا معًا.. لأنك تثير جنوني، ولأنني لا أستطيع أن أكون نفسي من دونك.

⌘⌘

قرأت على الإنترنت قصصًا لنساء أخريات يشكين من رجالهن. فاكتشفت أنني لست الوحيدة التي تكافح مع نفسها ومع شريكها بعد مرور فترة طويلة على العلاقة. فمثلًا حكت امرأة تستخدم اسم "الدبة القطبية 51" عن زوجها الذي يهددها بالطلاق بعد كل شجار. كما حكت "فيكتوريا دائمًا" عن زوجها الذي لم يعد يمارس الحب معها منذ عامين. وحكت "ياسني" عن وقوعها في غرام رجل آخر، لدرجة أنه نام معها على فراش الزوجية. حرصتُ أيضًا على قراءة تعليقات الآخرين أسفل كل قصة، ووجدت بعضهم يعانون من مشاكل مشابهة. من بين النصائح التي لفتت انتباهي: "اذهبا إلى خبير في العلاقات الزوجية"، "عليكما أن تنفصلا"، "لا تستسلمي"، كما كتب البعض أن الأبناء يغيرون كل شيء، بعد أن ينصَّب تركيز الزوجين عليهم. قرأت أيضًا قصة "ساندرا 77"، التي خانها حبيبها، وهي تخضع لعملية جراحية دقيقة للغاية. أما "قبعة الشمس 23"، فحكت عن زوجها الذي يخبرها أنه في المكتب، في حين أنه يقضي يومه في البار. أما زوج "القلب المنكسر"، فقد خانها على فراش الزوجية مع إحدى فتيات الليل.

أخذت أقرأ قصة تلو الأخرى، حتى بدت مشكلاتي في غاية البساطة. لو حكيت قصتنا، سيكتب المعلقون، أنني لب المشكلة، وأنني لا أستحقك، لأنك

مستعد أن تفعل أي شيء لإرضائي، ولكني لا أكترث سوى بنفسي فقط. كانوا سيكتبون أيضًا، أنه لا يوجد رجل مثالي، وأنه من الصعب أن تجد المرأة رجلًا تبني معه علاقة ناجحة، وأن علاقتنا هذه يمكن التنبؤ لها بمستقبل واعد، لأننا معًا منذ فترة طويلة، وليس من السهل أن تتخلى أي امرأة عن علاقة كهذه.

⌘⌘

حلمت أننا معًا على شاطئ "إيسولو"، حيث يقذف البحر أمواجه على الشاطئ ويقترب منا أكثر فأكثر. أردت أن أقول لك شيئًا، فالتفتُّ إليك، ولكني لم أجدك. ثم رأيتك مستلقيًا على وسادة العوم الهوائية بعيدة، وأخذتَ تبتعد أكثر فأكثر، حتى تلاشتْ ملامحك تمامًا.

اتصلتُ بـ"مارلينا" وأجهشت بالبكاء. فقالت لي:

– لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام. ستجدان حلًا، فلا أحد يتخلى عن حبيبه بعد مرور فترة طويلة كهذه. أنا و"لوكاس" أيضًا لدينا مشاكلنا، فالعلاقات تتطلب جهدًا شاقًا، وأنت تعلمين ذلك جيدًا.

– لا أعلم إن كنت أريد أن أظل في هذه العلاقة.

– بالطبع تريدين ذلك. إنها علاقة جيدة، لن تعيشي مثلها ثانية.

– ولكني غاضبة للغاية!

- ولكن عليك أن تتفهمي "جورج". بصراحة، لو كنت مكانه لنفد صبري منك. أنتما في حاجة إلى فترة استراحة، وأنا متأكدة أن الأمور ستعود إلى نصابها في غضون بضعة أيام.

⌘⌘

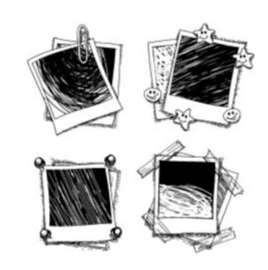
وقفتُ أمام بابك وقرعتُ الجرس، ولكنك لم تفتح، لأنك كنت تعلم أنها أنا. ظل إصبعي ضاغطًا على الجرس، حتى تفتح لي الباب، قبل أن يلاحظ والداك شيئًا. ظللت أطرق الباب وأقرع الجرس، ولكني لم أسمع حسًا، لا من داخل شقتك ولا حتى من داخل شقة والديك. أين اختبأتم جميعًا؟ هل تجلسون معًا في شقتك وتتظاهرون بأنكم لستم بالداخل؟ هل طلبتَ منهما أن يصمتا، وألا يصدرا صوتًا حتى أرحل؟ أخذتُ أدق بابك بقبضة يدي، ثم ناديتك قائلة:

- أنا متأكدة أنك بالداخل!

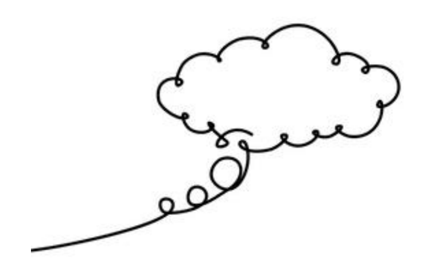
وفجأة، أدركت أنني جعلت من نفسي أضحوكة.

أدركت أنني لا يجوز أن أقف أمام بابك هكذا، ولا يجوز أن أقدم لك أي اعتذار، بل يجب أن أرحل.

فلا شيء بيننا سيعود كما كان!



الفصل الثاني



استيقظت من نومي لأجد نفسي عالقة في الفراغ. التفتُّ إلى الوسادة والغطاء المجعد بجانبي، ولكني لم أجدك. تخيلتك بجواري، تبتسم لي وتسألني إن كنت قد نعمت بنوم هادئ، ثم تشدني إليك وتسألني عن الأحلام التي راودتني في منامي. وبعدها تنهض، ولكني أظل في الفراش، حتى تجذبني رائحة القهوة إلى الخارج.

يا لهذا السكون الذي صار يحاصرني في غيابك! تضخَّم البيت، واتسعت ممراته. صارت الأيام مثل الأسابيع، لم يعد لها مذاق. كنت أحدق في غطائك، وأتنفس بصوت عالٍ، حتى أشعر بوجودك معي. انتابني ألمٌ في

بطني، وثِقلٌ في صدري. ولكن الوسادة احتفظت برائحتك، كما انتشرت أغراضك في كل أرجاء البيت. فوجدت كنزتك وفرشاة أسنانك في الحمام، وحذاءك عند المدخل، وكتبك على المنضدة، وشفرة الحلاقة فوق الرف.

ملأت وجوهنا الضاحكة حوائط البيت.. بدت في غاية السعادة، وكأنها ليست وجوهنا!

⌘⌘

رفعت الممرضة نظَّارتها إلى أعلى أنفها، ثم نظرت إليّ سائلة:

- متى كان أول يوم؟

سألتها:

- ماذا تقصدين؟

فأجابتني بانزعاج:

- آخر دورة شهرية!

أخذتُ أفكر في الإجابة، ولكنها لم تخطر ببالي. هل يمكن بالفعل أن أكون حاملًا؟ ابتلعت ريقي، ثم أجبتها:

- لا أتذكر.

فقالت لي:

- حسنًا، سنرى!

ثم نظرت إلى السيدة، التي وقفت خلفي في الطابور.

في حجرة الانتظار، استقبلني بساط بني كبير، مع قطعة فنية معدنية، على أنغام موسيقى "بيتهوفن". تكدَّست الحجرة بعديدٍ من السيدات،

وبعد أن بادلتهن التحية، انشغلن مرة أخرى بمجلاتهن وهواتفهن. جلستُ على كرسي أحمر كبير، وأخذت أتأمل عدة لوحات صغيرة من الفسيفساء، ولوحة كبيرة مرسومٌ عليها منارة في عرض البحر.

بدا على السيدات الارتياح، باستثناء واحدة؛ كانت تنقر بأصابعها على ساقيها بعصبية. شعرت بنظراتهن إلى بطني، وكأنهن يعرفن ما بداخلها، فلا شك أنهن سمعن حديثي مع الممرضة.

حاولت أن أتجنب نظراتهن، فأخذت أجول بعينيّ على الجدران. وإذا بي ألتفت إلى نساء أخريات ينظرن إليّ من داخل لوحات الفسيفساء الصغيرة المتناثرة في جميع أنحاء الغرفة. أجسادهن العارية ذكرتني بآلهة اليونان. أخذت أتأملهن؛ فالأولى أبرزت ثدييها بمنتهى الفخر، والثانية وقفت بجوار عربة أطفال، أما الثالثة، فحملت سمكة في يدها، في حين رقدت الرابعة على الأرض وشابكت ساقيها. شعرت بحصارهن، واخترقتني نظراتهن. لم أشأ أن يفحصني هذا الطبيب، الذي يعرض في عيادته أجساد النساء العاريات، وكأنها قطع فنية.

شعرت أيضًا بالاستياء من بقية النساء، اللاتي جلسن معي في حجرة الانتظار، فقد نظرن إليّ كما لو كنت واحدة منهن.. كلا! أنا لست واحدة منكن. اصرفن نظراتكن عني! انظرن إلى مجلات الأطفال ونشرات الحمل، أو انشغلن مع صديقاتكن وأمهاتكن، وفكرن في صحتكن، وأسركن الصغيرة، وبيوتكن. دعوني وشأني!

أردت أن أتقوقع داخل حفرة صغيرة، وألا أخرج منها أبدًا. أما أنتَ، يا من انقطعت أخبارك عني، فكنت جالسًا في بيتك، ولم تكن لديك أدنى فكرة عمَّا يدور في حياتي. وكأنك تنتمي إلى حياة أخرى.

صافحني الطبيب بقوة، ثم أغلق الباب من خلفي. لم يسألني كثيرًا عن أحوالي، ولكنه رمقني بنظرات ثاقبة. كان يرتدي سروالًا من الجينز ومعطفًا أبيض، وتناثرت بضع شعيرات خفيفة فوق صلعته. قال لي:

- من فضلك اذهبي إلى الحجرة التالية.

وأخذ يكتب شيئًا أمام شاشة الكمبيوتر.

كانت الحجرة داكنة، والنوافذ مغلقة، والأرفف ممتلئة بعدة معدات معدنية. كما كان يوجد في منتصف الحجرة جدار فاصل لتغيير الملابس. دخل إليّ الطبيب، ثم قال:

- استلقي على الأريكة.

سألته:

- هذه الأريكة؟

فرفع حاجبيه ساخرًا، ثم قال:

- أيوجد غيرها؟

أخذ يفحص ثديي، وبعدها قال ببطء شديد:

- والآن اجلسي على مقعد الفحص.

استعان بمصباح كبير وأخذ يفحصني، ثم استدار باحثًا عن بعض المعدات. بدأت ساقاي ترتعشان، وبعد لحظات، استدار إليّ مرة أخرى قائلًا:

- استرخي، لا داعي للتوتر، لن تشعري بأي ألم.

أخذتُ أعض شفتي السفلى، ولكني حاولت ألا أرتجف، وأن أحافظ على هدوئي. كتمت أنفاسي، فقال لي:

- تنفسي بشكل طبيعي، لن يصيبك أي مكروه.

تخيلتك أمامي، جالسًا على الأريكة تشاهد التليفزيون، ثم تفتح زجاجة بيرة. كنتَ ثائرًا من الغضب تجاهي.

عضضت شفتي بقوة، لدرجة أنني شعرت بمذاق الدم يتسلل إلى فمي، لطخ الطبيب بطني بالجل البارد، وأخذ يراقب الشاشة بتركيز، وفجأة قال لي:

- أنتِ حامل!

قالها بنغمة فرحة، ثم نظر إليّ بترقب.

وجدتني أسأله:

- حامل؟ حامل؟

فقال لي:

- أترين هذا؟

قلت له:

- لا أرى أي شيء. لا يوجد أي شيء!

فقال بنبرة متأملة لمعجزة الحياة:

- بلى! انظري عن كثب.

أردت أن أصرخ في وجهه، أن أقول له إنه لا يوجد ما يدعو للتأمل. أردت أن أقذفه بجهاز "السونار"، إذا ما لم يتوقف عن الحديث بهذه النبرة المتأمِلة. فلا يوجد ما يدعو للتأمل. من قال إن الحياة معجزة؟ كلا! إنها وغدة لعينة!

أغلقت عينيّ، وارتعشت ساقاي بشكل ملحوظ. شعرت بالدموع وهي تنهمر على وجهي. ماذا عساي أن أفعل؟ ازدادت نبضات قلبي، كما لو أن هناك قلبين في جسدي، وكأن هناك من يريد أن يقول لي أنني لست وحدي، فقد صرنا اثنين، وستخفق قلوبنا معًا. سألني الطبيب باهتمام:

– هل أنتِ بخير؟

ثم ربَّت على ذراعيّ بلطف، فتسلل دفؤه إلى جسدي. احتواني صوته، وكأنه غطاء دافئ. سمعته يقول مرة بعد مرة:

– سيكون كل شيء على ما يرام... تنفسي.. شهيق.. زفير.. اهدأي.. فكل شيء على ما يرام! سنفعلها.. سنفعلها معًا.

شعرت بأنفاسه على وجهي، وهو يستطرد قائلًا:

– أنا معكِ!

وإذا بصوته يدوي، وكأنه صوتكَ أنتَ.

⌘⌘

قرأت أن رحم الحامل يتحول إلى عالم صغير. كما قرأت عن السائل الأمنيوسي، الذي يحيط بالجنين، والكيس السلوى، والمشيمة. صار رحمي بحجم ثمرة اليوسفي. أما الجنين، فكان بحجم حبة الفول. أدركت أن هناك كائن حي صغير يتشكل بداخلي؛ كتلة من الخلايا تحوي الدماغ، والكبد، والمعدة، والأمعاء، والحبل الشوكي، والقلب. أخذت أربت على بطني، ولكني لم أشعر بأي شيء. أخذت أتنفس بعمق، وأعد إلى عشرة. كيف يمكن أن ينمو

شيء بداخلي؟ له ذراعان، وساقان، ورأس، وقلب؟ أغمضت عينيّ، وأخذت أعد أنفاسي؛ أحد عشر، اثني عشر، ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر، ستة عشر، سبعة عشر. ضربت بطني بقبضة يدي، ولكني لم أشعر بأي ألم.

جنين بحجم ست مليمترات يمكن أن أسحقه بين أصابعي، فهو في حجم البرقة، يكاد يكون غير مرئي، وعيناه لا تتجاوز حجم النقطة.. له رأس وجذع وذيل، وأقواس خيشومية، سيتشكل منها الفكان السفليان، والأذن الوسطى، والجهاز الصوتي.

هو عبارة عن لا شيء، ولكنه سيصبح كل شيء!

تراءت لي عدة سيناريوهات متباينة؛ أُجهض الجنين.. أستسلم للسكر.. أضرب بطني.. أخطرك أنني حامل.. أخطرك أنني سأُجهض الجنين.. يشع وجهك بهجةً.. أقف بجوار عربة أطفال.. تقِفْ بجوار عربة أطفال.. أحمل طفلًا بين ذراعيّ.. تحملْ طفلًا بين ذراعيك.. نجلس معًا في حجرة الانتظار بالعيادة.. أول صورة نطبعها من جهاز "السونار".. وآخر صورة.. سعادة والديك.. وجهك عندما أخبرك أنني أجريت عملية إجهاض.. أخبر الطبيب أنني أريد الاحتفاظ بالجنين.. أشتري الأعشاب الطبية.. أشتري أول زي للطفل.. لا أبوح لك بحملي.. ألقي بنفسي من السلم.. أبكي بسعادة.. أركض إلى الغابة وأصرخ.. عيناك تشعان بهجة.. أحزم حقائبي، وأرحل بعيدًا.. الصدمة في عينيك.. سخط والديك.. أقول لك أنني سعيدة.. أقول لك أنني بائسة.. أقول لك أن هذا الطفل هو أفضل ما حدث لنا.. أقول لك أن هذا الطفل دمر حياتنا بأسرها.. أقول إنه دمر حياتي أنا.

وقفت أمام المرآة، ولكن ملامحي لم تتغير، ولم تكن هناك أية إشارة على وجود جنين في رحمي، وكأنني في حلم.

حاولت أن أتذكر ملامح أمي. كان وجهها يخفي شيئًا، وكانت لديها تجعيدة عميقة بين عينيها. تُرى، هل كانت أمي تنظر إلى نفسها في المرآة، وأنا في بطنها؟ هل ضربت بطنها؟ هل عرفت معنى السعادة؟ أم ظلت تُرجؤها لسنوات، حتى ضاق صدرها وكادت تختنق؟ كيف يمكننا أن نتعرف على لحظات السعادة؟ أغمضت عينيّ، ووضعت يديّ فوق أذنيّ، فسمعت صوت البحر الكامن في أعماقي، يتخلله خفقان خافت؛ دقات قلب، أو قلبين. وكأنهما يضربان بعضهما بعضًا.

يا لها من معجزة! أعظم معجزات الحياة.. إنها حقًا لحظة مميزة.. إعجاز ما بعده إعجاز.. أكثر تجربة عاطفية يمكن لأي امرأة أن تمر بها.

⌘⌘

قرأت مقالة بعنوان: "ثلاثون سببًا يجعلكِ تتوقين إلى الحمل":

1- في الأسابيع القليلة الأولى، لن يعرف أحد عن حملي سوانا، أنا وأنت فقط.

2- لدي تسعة أشهر كاملة لتخطيط كل شيء.

3- ملابس الحمل عملية ومثيرة.

4- من حقي أن يزيد وزني، كما يحلو لي.

5- سأنعم بالنوم العميق.

6- عليّ أن أدلل نفسي بالمساج والحمامات والمستحضرات.

7- سأحصل على إجازة وضع، وسأترقب ولادتي بأريحية، وسأتفرغ لطفلي بعد ذلك.

8- سأشارك في دورة تحضيرية للولادة. وهناك، سأُكوِّن صداقات جديدة.

9- سيصل ثدياي إلى الحجم الذي تمنيته طوال حياتي.

10- سأقدِّر قيمة الوقت.

11- سأفهم والدتي بشكل أفضل، وسأُقدِّر كل ما مرت به، وفعلته من أجلي.

12- ستشع البهجة من عيون أفراد العائلة، عندما نَزُفُ إليهم هذا الخبر.

13- سأعيد اكتشاف حرفة الحياكة، وسأقوم بحياكة بعض الجوارب لطفلي.

14- سأخصص غرفة للطفل.

15- سأسمع أول نبضة قلب.

16- سأشعر بأول ركلة.

17- سأشتري ملابس أطفال.

18- ستضع يدك على بطني، فتدرك أن حبنا قد خلق حياة جديدة.

19- سنقضي أمسيات كاملة في التفكير في اسم المولود.

20- سنتخيل ملامحه.

21- سنحلم به.

22- سأدرك أن شخصًا صغيرًا صار ينمو داخل بطني الكبير.

23- سأحمل في يدي أول صورة من "السونار".

24- حياتي لن تعرف الملل مرة أخرى.

25- سأتصل بك وأقول: "لقد حان وقت الولادة!".

26- سأشعر بالفرحة والراحة بعدما ينتهي الألم.

27- سأنظر في عيني طفلي لأول مرة.

28- ستقف بجوار سريري حاملًا باقة من الورد، وستشكرني على هذه الهدية.

29- سيستيقظ بجواري، فأدرك أنني صرت أمًا.

30- سنكتب رسالته الأولى: اسمي X. جئت إلى الدنيا في يوم X في تمام الساعة X. وزني X كجم وطولي X سم. ماما وبابا سعداء للغاية.

⌘⌘

فرشْتُ ورقة كبيرة على الأرض، ورسمت عليها بعض الخطوط، والدوائر، والأقواس والأمواج، حتى شكلت جسدًا ضخمًا، ينمو خارجه بطن كبير، أشبه بالجبل الثقيل. ثم رسمت وجهًا منخفضًا، يشع بنظرة مظلمة، ترنو إلى مسافة نائية. وبعدما أنهيت اللوحة، استلقيت بجوارها، فوجدتها تفوقني طولًا.

⌘⌘

قالت لي "مارلينا":

- لا يمكنك أن تجهضي الجنين. كيف وردت لكِ تلك الفكرة من الأساس؟

أجبتها:

- إنه مجرد احتمال، فالوقت ليس مناسبًا.

فنصحتني قائلة:

- فكري بالمستقبل. إنه طفله أيضًا، ولا يحق لك أن تتخذي هذا القرار وحدك. لن ينتظرك "جورج" إلى الأبد. عليكِ أن تتحدثي معه، وتصلحي الأمور بينكما.

⌘⌘

تصميماتي لم تعجب العملاء. وما زاد الطين بلة، هو أن جهاز الكمبيوتر قد تعطل، فحُذفت جميع التصميمات. شعرت بالغثيان والصداع، بالإضافة إلى تشنجات في بطني. ذكرتني الأغاني التي دوت في الراديو بك، ووجدتني أتشاجر مع زملائي ومع مديري، حتى اسودت الدنيا أمام عينيّ. نصحتني "ساندرا" قائلة:

- عليكِ أن تعودي إلى بيتك، وحاولي أن تصفِّي ذهنك.

وبالفعل لمت أغراضي ورحلت.

انهدم كل شيء، وتدمرت حياتي، فصرت أمضي فيها بين الأطلال!

⌘⌘

نزلت من الحافلة مع حلول الغروب. كان الجو رطبًا، والشوارع شبه خالية. شعرت بالغثيان والدوار. أخذت أسير في أحد الطرق، وأتأمل الشقق التي تشع نوافذها بوميض التليفزيون، فوقعت عيناي على أُسَر تجلس معًا على الأريكة، أو أمام مائدة الطعام. وأحيانًا، لم أرَ سوى ظلالهم. وجدتني أقف أمام إحدى الشقق، وأتأمل أسرة مكونة من أم وأب وثلاثة أطفال يجلسون معًا على أريكة كبيرة يشاهدون التليفزيون في حجرة المعيشة، التي امتلأت بالألعاب والوسائد والأغطية. تحركت أفواههم، ولكني لم أتمكن من سماع ما يقولون. استوقفني هذا الجزء الساكن من حياتهم اليومية. رأيت الأم تضحك، والأب يضع ذراعه حول كتفها. هل هذا أنت؟ وهل هذه أنا؟ شعرت بانخفاض في ضغط الدم، وعاد إليّ الشعور بالغثيان. اتكأت على جدار المنزل وأغمضت عيني، وأخذت أتنفس، بينما انهمرت دمعة على وجنتي. وعندما فتحت عيني، فوجئت بالأب يرمقني بنظرة غاضبة، يتخللها قدر من الاشمئزاز، قبل أن يغلق الستائر ويختفي وراءها. فما كان مني سوى أن مضيت في طريقي.

كان الهواء البارد يتسلل بعمق إلى رئتي. فقد كان لي وحدي، لأنك لم تكن معي. يا له من شعور مريح ومضني في الوقت نفسه.

⌘⌘

صار بيتي هادئًا وفارغًا، ومظلمًا. أوقفت الراديو، وأخذت أتجول من غرفة إلى أخرى، فتراءت لي ظلالنا في جميع أنحاء البيت. تذكرت كيف ترقص في المطبخ، وكيف تتعالى ضحكاتنا، ونحن نجلس مع أصدقائنا أمام مائدة الطعام.. كيف تتحدث معي، وأنت تغسل أسنانك، فلا أفهم منك أي

كلمة.. كيف نرقص عراة في أرجاء البيت، ثم نقفز إلى الفراش.. كيف تشد مني الغطاء، كي توقظني من النوم.. وكيف تقبلني، كي توقظني من النوم.. كيف تغفو بجواري كل ليلة.. وكيف تلازمني كل ليلة.

تردد صدى دقات الساعة في شقتي، فذكرني بالوقت الذي مضى، دون أن أخبرك عن حملي. فكل ثانية تمر، كانت تفرق بيننا أكثر فأكثر.

مضى وقت طويل على رحيلك.. أو رحيلي.. لم أعد أتذكر! ولكني ما زلت مغرمة بالابتسامة التي ترتسم على وجهك، عندما تنظر إليّ، وعناقك الذي يُغنيني عن كل شيء. لعلني أفتقد صورة لك في خيالي.. أو صورة لنا، رسمتها كما تمنيتها.

أرغب في الذهاب إليك، أو الاتصال بك. أريد أن أسمع صوتك ولو للحظة واحدة. أريد أن أشعر أنك عدت إلى جواري.

لم أعد أستطيع النوم. صرت أتقلب وأستدير على سريري طوال الليل، فأخرج إلى الشرفة، وألقي نظرة على الشوارع الخالية، والنوافذ المظلمة. أجد المكان من حولي هادئًا، فالجميع نائمون، ولا شك أنك أيضًا نائم، فالنوم لا يهرب إلا من عينيّ أنا.

ها نحن نفترق لأول مرة، ولم أسمع عنك شيئًا. لم تكن حتى تعرف أنك ستصبح أبًا، إذا قررت أن أحتفظ بالجنين. كان بإمكاني أن أذهب إليك وأطرق بابك.. كان بإمكاني أن أستسلم للأمر الواقع وأخضع له. مرات ألقي اللوم على نفسي، ومرات عليك.

تُرى، ما سر تعاستي؟

ارتديت ملابسي وخرجت من البيت. تردّد صدى خطواتي عبر الفناء. أخذت أمشي حتى وصلت إلى حانة، كثيرًا ما أتردد إليها مع "مارلينا". وحالما فتحت الباب، اجتاحتني رائحة الدخان البارد. جلست أمام البار، وطلبت زجاجة بيرة كبيرة، ثم أشعلت سيجارة. لاحظت أن مذاق الدخان اختلف بعض الشيء، وشعرت أنه يحترق في رئتي.

وضع النادل الزجاجة أمامي. نظرت إلى الطاولات الفارغة، ثم وقعت عيناي على رجل يجلس وحده في الزاوية أمام ماكينة القمار. مِلت إلى الأمام، كي أتمكن من رؤية الشاشة، حيث ظهر صفًا من الكريز والأجراس، والعملات المعدنية، وبعض الأرقام والحروف. وبعدها، عاود الرجل المحاولة، ووضع عملة جديدة في الماكينة.

نهضت من مكاني وذهبت إليه. وقفت بجواره، وتساءلت عن المغزى وراء صور الكريز والبطيخ. هل لأنهما فاكهتان تبعثان على السعادة؟ من الغريب أنه لم يلحظني، فقد جلس هناك منكفئًا على الماكينة، يدخل فيها عملة تلو الأخرى..

سألته:

- كم المبلغ الذي راهنت به اليوم؟

وإذا بالنادل يقول لي:

- دعيه وشأنه!

ولكني ظللت واقفة بجواره، أراقب صور الحروف، والأجراس، والكريز، والبطيخ، التي ظهرت على الشاشة. سألني النادل:

- هل أحضر لكِ زجاجة بيرة أخرى؟

فأجبته، مشيرة إلى زجاجتي:

- كلا!

علت الموسيقى، وخفَّت الأضواء، فاختفت معها آثار السجائر المتناثرة على المقاعد، كما اختفت تفاصيل الديكور الرديئة، ورائحة الدخان. سألني الرجل:

- ماذا تريدين؟

فأجبته:

- إنني أراقبك فقط!

أخذتُ عملة معدنية من جيبي، ثم قلت له:

- دعني أجرب!

فذهب إلى البار، وطلب مشروبًا، بينما تحركت صور الأجراس والكريز أمامي على الشاشة. وبعد المحاولة الثالثة، أصدرت الماكينة موسيقى غريبة، وخرت منها عدة عملات، فجمعتها كلها، ثم وضعتها بجوار زجاجة الرجل على البار، فما كان منه سوى أن نظر إليّ بابتسامة.

بعد مرور بعض الوقت، قال لي:

- ارقصي معي!

أمسك بيدي، فتركت نفسي أنساق معه. دارت كرة "الديسكو" من فوقنا، وقذفت نجومًا صغيرة على الحائط، ووضع ذراعه حول خصري، على أنغام أغنية "جوني كاش"، التي تقول كلماتها: "جرحتُ نفسي اليوم".

كانت رائحته مختلفة عنكَ، صحيح أنها امتزجت برائحة الدخان والكحول، ولكني أحببتها. نظرتُ إلى البار، ولكني لم أجد النادل. فأغمضت عينيّ، وشعرت برأسه تتكئ على كتفي. من هو هذا الرجل؟ آخر همي! لم أبالِ بما ظنه النادل عني، ولم أكترث بصورتي في عيون نفسي. استعذبت الشعور بأنفاس رجل غريب؛ لا يعرف من أنا من الأساس.

هل كنتَ نائمًا حينها؟

رقصت معه على أنغام أغنية فريق "بيتلز"، التي تقول كلماتها: "هناك إجابة دائمًا"، وأغنية فريق "كاند هيت"، التي تقول: "يجب أن أتوقف عن البكاء"، وأغنية فريق "توكوترونيك"، التي تقول: "العقل الخالص لا يربح أبدًا"، وأغنية "جوني أوزبورن"، التي تقول: "سواء كنتِ جاهزة أم لا".

أخذنا نغني معًا، بينما تقاربت أجسادنا. لم أقترب منكَ هكذا منذ فترة طويلة. تركنا المكان في وقت متأخر من الليل. كان بعض الزبائن ما زالوا موجودين، ولكننا لم نلتفت إليهم.

بالكاد لم نتحدث مع بعضنا طوال السهرة. بل اكتفينا فقط بالمداعبة، والمرح، والرقص، والغناء. وحتى الآن، ما زلنا لا نعرف شيئًا عن بعضنا.

تشابكت يدي مع يده الدافئة، فاحتوت أصابعي.

سألني:

- هل ستأتين معي؟ إنني أسكن بالقرب من هنا. يمكنك أن تقضي الليلة معي، إن لم يكن لديكِ مانعٌ.

أخذنا نسير معًا متشابكي الأيدي، حتى وقفنا أمام بيته. لم أخطئ في حقكَ عندما رافقته إلى بيته. وعندما أغلق الباب، ظل واقفًا محدقًا في، دون أن يقترب مني. ولم يحاول أن يقبلني، أو حتى يعانقني. وقفنا أمام بعضنا نتبادل نظرات صامتة، حتى أطفأ النور قائلًا:

– تصبحين على خير!

ثم أغلق الباب خلفه.

استلقيت على الأريكة، وأخذت أتخيل حياتي معه. تخيلت أننا نجلس معًا في المطبخ، وأنه يضمني إليه، ويقبلني.. تخيلت، كيف نغفو معًا.

وفي جوف الليل، استيقظتُ من نومي، بعد أن ظهرتَ لي في الحُلم. رأيتكَ تمضي بجواري على الطريق، ولكنكَ أغفلتني. ناديتكَ، ولكنكَ لم تسمعني، فناديتكَ مرة أخرى بصوت أعلى. وحينها، التفتَّ إليّ، فرمقتني بنظرة خاطفة، وألقيت سلامًا عابرًا، ثم التفتَّ بعيدًا، ومضيتَ في طريقك.

اجتاح جسدي ألمٌ عميق، وكأنني فقدتُ جزءًا مني. اكتنف الظلام كل شيء حولي، وتسلل صوتٌ ما إلى أذني. حبست أنفاسي؛ لعله في الحجرة.. يقف أمامي.. يراقبني في منامي. أغلقت عينيّ. ثارت مخاوفي، بعدما شعرت أنه يراقبني، ولكني في الوقت نفسه، استعذبت ذلك الشعور، بأن هناك من يتوق إلى قُربي.

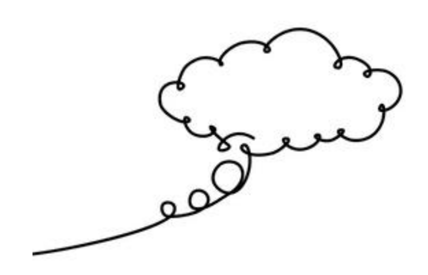
كان الوقت لا يزال مبكرًا. في الوهلة الأولى، لم أدرِ أين كنت. وبعدها، أخذتُ أراقب الحجرة، حيث وجدتُ سترةً غريبة على ظهر الكرسي، وصورًا غريبة على الحائط، ورائحةً غريبة تفوح من غطاء السرير. وإذا بي أتذكر

تفاصيل ليلتي مع ذلك الرجل الغريب. لم أسمع حسًا في البيت؛ لعله ما زال نائمًا! أمسكتُ بحذائي، وأخذتُ أمشي بهدوء نحو الباب، ثم ارتديتُ الحذاء على السلم، ونزلت طوابق المبنى.

ذهبت إليك، ووقفت أمام بابكَ مرة أخرى. فقرعت الجرس، وانتظرتك.

ها أنت ذا تفتح لي الباب هذه المرة. هكذا، وقفنا أمام بعضنا نتبادل نظرات صامتة. ما الذي حدث لنا؟ كم من كلمات أردت أن أقولها لك، ولكنها تلاشت كلها، بعد أن خمدت العاصفة، وانمحت عبارات العتاب.

وجدتني أغرق بين أحضانك، أشعر بنبضات قلبك على صدري، يتسلل دفؤك إلى جسدي، وأستنشق رائحتك عبر أنفاسي. شعرت أنك ملاذي. وكأننا بعد الإعصار، حيث يفوح الأسفلت برائحة المطر، ويبتلع آثارها رويدًا رويدًا.



الفصل الثالث



تقاربت أجسادنا بقدر من التوجس، وتلامسنا بحذر. ضممتك إليّ، وشعرت بشفتيك على جسدي. وعندما التأمت أجسادنا، تعالت أصواتنا وانخفضت. لم نكن ندري إن كنا في وضح النهار، أم جوف الليل. وكأننا لم نفترق منذ فترة طويلة، وكأننا لا نزال على حالنا.

لكننا تغيرنا بعض الشيء، فقد صرنا أكثر نضجًا!

ظللت بجوارك على الفراش طوال الليل، حتى بزوغ الفجر، تمامًا مثلما كنا في بداية علاقتنا. قلتُ لك:

– دعنا نبدأ صفحة جديدة.

فوافقتني قائلًا:

– سنجد حلًا لكل شيء. أريدك أن تعلمي، أنكِ بالنسبة لي أهم من البيت.

انجرفنا إلى ذكريات شبابنا، وعلت ضحكاتنا، ونحن نتبادل الحديث عن الماضي. تحدثنا عن أيام، مضت منذ زمن طويل، وكأن كل شيء كان أفضل آنذاك.

حكيت لي عن المشاعر التي اجتاحتكَ عندما وقعتْ عيناك عليّ لأول مرة. هل كانت مشاعركَ حقًا كما تدَّعي، أم أنك اختلقت نسختك الخاصة من الماضي؟ حاولتُ أن أستحضر شعوري عند بداية علاقتنا. هل خفق قلبي، بعدما تبادلنا أول قبلة؟ هل كانت ترتفع حرارة جسدي مع كل لمسة؟ هل نظرتَ إليّ، وكأنه لا يوجد سواي على سطح الأرض؟ هل كنا بالفعل نهيم في حالة من العشق والهيام؟

تلاشت الذكريات على مر السنين؛ فبعضها صار باهتًا، وبعضها صار على وشك الزوال.

منذ أشهر – بل منذ سنوات – لم نتحدث كثيرًا هكذا. تكلَّمنا عن أمانينا وأحلامنا، وعن الأخطاء التي وقعت بيننا. قررنا أن نتحدث معًا أكثر، وأن نضحك معًا أكثر، وأن نشارك بعضنا في مختلف الأنشطة.

لا بد أن يُقدِّر كل منا الآخر، ويستمع إليه، ويفهمه.. لابد أن نتقارب، وألا نفترق.

تأملتُ الخطوط التي رسمتها ضحكاتك على وجهك وأنت تضمني إليك. أردتُ أن أخبرك عن طفلنا، الذي وصل حجمه إلى أربعة سنتيمترات،

ووزنه إلى خمسة عشر جرام. وددتُ أن أحكي لك عن حجم عينيه، وأنفه، وقدميه. فقد تحوَّل ذيل السمكة إلى ساقين، والزعانف إلى يدين. إنه ينمو بداخلي، وما زلتَ لا تعرف عنه شيئًا. ولكنني لم أقل سوى كلمة:

- أحبكَ.

فبادلتني إياها قائلًا:

- وأنا أحبكِ أكثر.

فقلتُ لكَ:

- بل أنا أكثر.

ضحكنا، لأننا نعرف أن الحب ليست له درجات.

طرقَتْ السعادة بابنا مرة أخرى. فبعدما يخمد الإعصار، تتوالى بضع أيام هادئة، ولكنها سرعان ما تمضي.

كنا نتبادل القبلات في السيارة، والسوبرماركت، وحمام السباحة، وكأننا أردنا أن نثبت سعادتنا للعالم بأسره. صار حبنا خاليًا من أي حسابات. وصارت قبلاتنا أكثر حميمية، ولم نعد نتحدث عن البيت، ولا عن الخطط المستقبلية.

تجاهلنا كل ما فرَّق بيننا، ولم نكترث سوى بحبنا. صرنا نتبادل كلمة "أحبك" طوال الوقت، وكأن حبنا قد يخمد مرة أخرى، إن لم نتبادلها مرارًا وتكرارًا. كاد عالمنا أن ينفجر من فرط السعادة، وكأنه منطاد عملاق امتلأ بالهواء، وصار يرقص من فوقنا.

⌘⌘

في أحد أيام الصيف الأخيرة، استلقينا معًا أمام البحيرة، فيما انعكست الجبال على سطحها، وهبَّت الرياح بين أوراق الشجر. وبينما تشابكت ساقانا، مسحتَ على شعري قائلًا:

- كم أنتِ جميلة!

انتابتني قشعريرة في جسدي، تمامًا مثلما كنتُ أشعر في بداية علاقتنا. رأيتُ بجوارنا بجعتين، تُخبئان رأسيهما بين الريش، ثم سمعتُ من خلفنا صوت فتاة صغيرة تسألنا:

- عفوًا! هل أنتما أصحاب هاتين البجعتين؟

فأجبتَها:

- نعم! لا تقتربي منهما. يمكن أن تعُّضَاكي.

فقالت الفتاة:

- ولكنهما أخذا كرتي.

نهضتَ من مكانكَ، وأمسكتَ بالكرة، فاستيقظتْ إحداهما، وفتحتْ منقارها بعصبية، ثم دفستْ رأسها بين ريشها مرة أخرى.

أخذتْ الفتاة الكرة، ولكنها ظلت واقفة خلفنا تتأمل البجعتين. وبينما استلقيتَ بجواري، قلتَ لي:

- أريد طفلة كهذه!

ولكني لم أنبس ببنت شفة. حاولتُ أن أتغلب على خوفي، وأن أُرجئ التفكير في مستقبلنا، وأن أستمتع بسعادتنا اللحظية.

⌘⌘

كلما فتحتُ التليفزيون، وجدتُ طفلًا ضاحكًا يرتدي حفاضات، أو أمًا سعيدة في المطبخ، أو امرأة حامل تدلِّك بطنها بالكريم، أو أمًا ضاحكة، تحمل ملابس أطفالها المتسخة، أو أسرة سعيدة تجلس على الأريكة، أو أطفال يلعبون مع آبائهم. لديهم جميعًا ابتسامات مشرقة على وجوههم، ولمعة في عيونهم. صار كل فيلم أشاهده يدور حول الأطفال. وهكذا دواليك؛ في كل إعلان، وكل صحيفة، وكل كتاب، لا أجد سوى عائلات، أو أطفال، أو أمهات، أو نساء حوامل. وكأنه لا يوجد شيء آخر في هذه الحياة.. وكأن الإنجاب هو المعجزة الوحيدة.. وكأننا لا بد أن نتذكر دائمًا وأبدًا، أن الإنجاب هو مصيرنا الحتمي.

تحولتْ حياتي المستقبلية إلى فيلم يدور في رأسي، أرى منه كل يوم مشاهدًا مختلفة؛ كيف سيكبر بطني، لدرجة أنني لن أرى قدميّ.. كيف سأشعر عند الولادة.. كيف ستضع رأسك على بطني.. كيف سيَخرج رأسه من بطني.. كيف سأصرخ وحدي.. كيف سأضمه إليّ.. كيف سيصرخ، دون أن أقدر على تهدئته.. كيف سينام بجواري في صمت.. كيف سيُغمض عينيه، حالما يسمع صوتي.. كيف سأشدو له التهويدات.. كيف ستتشبث بي يداه الصغيرتان.. كيف سيغفو على صدري.

صرت أتخيل ضحكته الأولى، وكلمته الأولى، وخطوته الأولى.. كيف سأُسقطه من يدي للمرة الأولى.. كيف ستصدمه سيارة وهو يعبر الشارع.. كيف سيصاب بكسر في الركبة.. كيف سيصاب بكسر في الرأس.. كيف سيغرق، بعدما أنساه في حوض الاستحمام.. كيف سيختنق، بعدما أغفو وأتركه.. كيف سيأتي إلى العالم في وقت مبكر من اليوم.. كيف سيضعونه داخل الحاضنة، ولن يسمحوا لي بلمسه.. صرت أتخيل مواقفًا لا حصر لها.

ماذا لو لم أشعر تجاهه بأي مشاعر؟ كيف لي أن أعرف أنني سأحبه؟

⌘⌘

صارت "مارلينا" تتصل بي كل يوم، كي تسألني:

- كيف كانت ردة فعله؟

فأجيبها:

- لم أخبره بعد.

فتسألني:

- لمَ كل هذا التأخير؟

فأؤكد لها أنني سأخبرك كل شيء، فتقول لي:

- أحيانًا لا أفهمكِ على الإطلاق!

فأؤكد لها:

- صدقيني، سأخبره غدًا، أو بعد غد على أقصى تقدير.

⌘⌘

اتصلت بي "أليكس"، وأرادت أن نذهب معًا إلى لقاء زميلات المدرسة. فنحن لم نلتقِ بهن منذ خمسة عشر عامًا. ذهبتُ على مضض، وكنت آخر من يصل. ولكنهن استقبلنَّني بكل ترحاب. لم تتغيَّر وجوههن، ولا قصَّات شعرهن، ولا حتى طريقة ملابسهن، بل ربما صرن أكثر تحفظًا.

رسمتْ السنوات على وجوههن بضع خطوط رفيعة، ودوائر أسفل العينين، مع بعض التجاعيد البسيطة. رأيت خواتم الخطبة والزواج حول

بعض الأصابع. الكثير منهن صرن يعملن بمجال "السكرتارية" والتدريس. لم يعتذر عن عدم الحضور سوى واحدة فقط.

أخذنا نسترجع معًا ذكريات الصبا؛ "أتذكرين يا "آندي" كيف كنا نهرب من المدرسة، ونسكر في وضح النهار؟"، "أتذكرين كيف هربتِ من منتصف المحاضرة؟"، "أتذكرين كيف عبرنا الطريق السريع في فرنسا، بعدما خبأنا زجاجات النبيذ المسروقة في حقائبنا؟".

تناولنا طعامنا، وأخذنا نتذكر معًا الأيام الخوالي، ونتنافس في سرد قصص الماضي. كنتُ أنا بطلة معظم هذه القصص؛ فأنا الوحيدة التي فُصلت، وأنا الوحيدة التي هربت من المدرسة عدة مرات. وأنا المشاغبة الوحيدة التي سعت طوال الوقت إلى لفت الأنظار، محاولةً التغلب على فقدان الأم.

تبادلنا عبارات من قبيل: "ما أسرع الوقت!"، "منذ متى حدث ذلك؟"، "كيف مضت السنوات بهذه السرعة؟"، "هل يمكننا أن نعود بالزمن؟"

قالت لي "نادية":

- لقد تغيرتِ يا "آندي".

فأجبتها:

- نعم، لقد كبرت.

فقالت "أليكس":

- هل أنتِ على ما يرام؟ إنكِ قليلة الكلام.

فأجبتها:

- إنني منهكة من العمل.

فقالت:

- إذًا، عليكِ أن تبحثي عن وظيفة أخرى!

فقلت لها:

- تعلمين أن الأمور ليست بتلك البساطة. إن كنتُ أريد أن أعمل ما أحب، فعليّ أن أبدأ مشروعًا مستقلًا.

فقالت "لينا":

- العمل ليس كل شيء في الحياة. إن راتبي ضئيل، ولا يكفي احتياجاتي على الإطلاق. ولكني سأستمر في الوظيفة لمدة عام. وبعدها، سأبقى في البيت، لأن زوجي راتبه كبير.

سألَتها "نادية":

- هل تزوجتِ؟

فأجابتها "لينا":

- في شهر أغسطس الماضي.

فسألتها "نادية":

- من هو سعيد الحظ؟

فأجابتها:

- إنه ليس من هنا!

فسألتها "نادية" مجددًا:

- من أين إذًا؟

فأجابتها "لينا":

- من ألبانيا. قولي ما يحلو لكِ!

فقالت "نادية":

- مادمتما سعيدين..

فقاطعتها "لينا" قائلة:

- لن تتغيري أبدًا!

فقالت "نادية":

- لقد تدفق إلينا كثيرٌ من الألبانيين، أكان يجب أن تتزوجي من أحدهم؟

استاءت "لينا"، فتركت المكان قائلة:

- طفح الكيل!

عاتبتُ "نادية"، وقلت لها:

- لماذا تعكرين صفو الأجواء هكذا؟

فأجابتني مستنكرة:

- ما بكِ؟ هذا رأيي، ولكل منا رأيه الخاص.

حاولتْ "أليكس" كعادتها أن تنقذ الموقف، فسألتها:

- كيف حال أبنائك؟

وسرعان ما تحول الحديث إلى المواضيع الأكثر أهمية بالنسبة لعمرنا؛ الأطفال، والزواج، والبيوت.

معظمهن لديهن أبناء، إما طفل واحد أو اثنان. هناك من جددت بيتها، وهناك من حصلت على شقة تمليك، وهناك من انتقلت مع زوجها إلى قرية مجاورة.

تحدثن عن فساتين الأعراس، وحفلات الزفاف، وعروض الزواج، وخواتم الخطبة، وتجديد البيوت، والقروض، والإعفاء الضريبي، والمولود الأول، والسيارة الثانية، والمولود الثاني، والثالث، وحفلات توديع العزوبية، والحماوات، والرضاعة، ورياض الأطفال، وإجازة الوضع. ظللن يفتحن ويغلقن أفواههن مثل الضفادع الصغيرة، حتى سألتني "نادية":

- ماذا عنك يا "آندي"؟ ألا ترغبين في الإنجاب؟

تبعتها "أليكس" سائلة:

- منذ متى وأنت لا تحتسين النبيذ؟

أصدرتُ ضحكة صاخبة ومصطنعة، ثم أجبتُها:

- لأنني تناولت بعض المضادات الحيوية.

فقالت "أليكس":

- لا أصدقكِ!

إنني حقًا لا أجيد الكذب، خاصة أمام "أليكس". فهي تقرأني جيدًا، حتى بعد مرور تلك السنوات كلها.

هكذا جلسن جميعًا، يتحدثن عن أطفالهن، وبيوتهن، وعائلاتهن المثالية، بينما نظرن إليّ بترقب، كي أقول شيئًا، ولكني لم أحكِ أي شيء. وقلت لهن بمنتهى الوضوح:

- دعوني وشأني! الأبناء ليسوا كل شيء في الحياة. لماذا لا تتحدثن إلا عنهم؟ ألم يعد لديكن حياة خاصة؟

⌘⌘

قرأت أن طفلي صار يتحرك، ويتشقلب، ويدور حول نفسه. صارت لديه عضلات، ويستطيع أن يحرك ذراعيه وساقيه، ورأسه، ويديه. شيئًا فشيئًا، تتشكل الأذن الخارجية، وطرف الأنف، والإبهام، والسبابة. أما عيناه، فهما مفتوحتان على مصراعيهما، لأن الجفون لم تتكوَّن بعد، واكتمل القلب، وانقسم إلى نصفين؛ أيمن وأيسر.

نعم، صار طفلي إنسانًا كاملًا، واكتملت أعضاؤه!

⌘⌘

جلسنا معًا في قطار الملاهي متشابكي الأيدي. وبينما صعد القطار على المنحدر، تصاعدت نبضات قلبي، حتى وصلتْ إلى حلقي. ضغطتُ على يدك، وضغطتَ أنت أيضًا على يدي. ها أنت بجواري، ولطالما كنت بجواري. فمادمنا معًا، سنجتاز أي شيء.

لم أكتم صرخاتي، لدرجة آلمت أحبالي الصوتية. خفت أن أقع وأفارق الحياة. مضى بنا القطار صعودًا ونزولًا، وانقلب بنا في الهواء، فاهتزت أجسادنا، وتطايرت أيادينا، وسمعت صريرًا قويًا في أذني. ولكني شعرت بالراحة، لأن الخوف من الموت أعاد حساباتي، وغير منظوري. وجدتني أخبرك بالحقيقة. بعدما خرجتْ العبارات من فمي، وكأنني لست من نطق بها، أو كأنني متفرجة، وقفتُ بجوارنا، أراقب مشهدًا لا يعنيني، ولست طرفًا فيه.

ابتهج وجهك، وأشرقت عيناك. ولكنك لم تسألني عن توقيت الحمل، ولا عن مشاعري، ولا حتى عن أي خطط مستقبلية.

في طريقنا إلى البيت، شعرتُ أننا ننتمي إلى بعضنا، وأننا أسرة واحدة، لا يمكن أن تتفكك أبدًا.

استلقينا معًا على السرير، وأخذتَ تمسح على رأسي، وتقاربت أجسادنا. غمرني دفؤك بالراحة والسكينة. وتباطأت أنفاسك حتى غفوت. وبينما ارتفع صدرك وانخفض ببطء، أدركتُ أنه لا مجال للرجعة؛ فقد تغيرت حياتنا، وازدادت مسؤولياتنا، وصرنا نترقب طفلًا صغيرًا.

فجأة، شعرتُ بشُّح في الهواء، وبضغط على صدري، وضيق في حلقي، ولكني سرعان ما غفوت. وعندما استيقظت في صباح جديد، وجدتك تبدأ يومنا بقبلة على بطني، ثم قمت بتشغيل الراديو.

أسميتني "أميرة"، ووعدتني أن تُدللني، وأن تعتني بي، فقط لأنني حملت في بطني شيئًا صغيرًا لا يتعدى حجمه ستة مليمترات. لم تسمح لي بالحركة، وطلبتَ مني أن أظل مستلقية على السرير، حتى تسللت إلى أنفاسي رائحة القهوة والكرواسون. وبعدها، أحضرتَ لي الفطور على السرير، ثم استلقيت بجواري. كان وجهك يشع بهجةً، متى كانت آخر مرة رأيتك سعيدًا هكذا؟

أخذتَ تشدو مع أغاني الراديو، وتطرق بأصابعك على بطني. وبعدها، قلت لي:

– لم تظهر عليكِ علامات الحمل بعد!

أخذتَ تطرح عدة أسئلة: "متى سنشعر به؟"، "ما هي مراحل نموه؟"، "أتعتقدين أنه يسمعني؟"، "متى سنخبر أهلي؟" فقلت لك:

- تريث قليلًا، فسيأتي كل شيء في أوانه.

أخذتَ تربت على بطني، وتهمس لها ببعض العبارات. أردتك أن تتوقف، ولكني تركتك تفعل ما يحلو لك، وقلتُ لك:

- كم أنا سعيدة بسعادتك!

ثم دفعتك بعيدًا قائلة:

- إنه مجرد بطن، به دودة!

فسألتني مستنكرًا:

- دودة؟ أهكذا تُسمين طفلنا؟

⌘⌘

امتزجت عوالمنا منذ أن عادت السعادة إلى حياتنا. بالكاد صرنا نفترق، وكأننا اكتشفنا وصفة الحياة السعيدة. صرنا نقضي المشاوير معًا، فنذهب معًا للتسوق، ولغسيل السيارة، ولتناول الإفطار. كما كنا نحرص على المكالمات الهاتفية في فترات الراحة من العمل.

أكثرنا من كلمة "نحن"، وجعلناها قاعدة، يبدأ بها يومنا، وينتهي معها.

كنا نقضي أمسياتنا أمام التليفزيون، ونتحدث باقتضاب عن وظائفنا. كنتَ تشكو من المهندسين، الذين لا يقدّرون جهودك، ويجرون عديدًا من التصويبات على تصميماتك. أما أنا، فكنت أشكو من الصور المثالية والشعارات الكاذبة، التي أعمل عليها كل يوم.

اتسعت حياتنا، لتشمل أولويات أخرى خارج نطاق العمل. فكنا نتحدث عن عدة أمور مهمة، ونفكر في اسم المولود، ونخطط لمستقبله.

قلتُ لك:

– لعلها ستصبح قائدة طيارة، أو ربما سيصبح لاعب كرة سلة.

فقلت لي:

– أو مدرس تاريخ، أو طبيبة.

أخذتَ تربت على بطني، فقد صرتَ دائمًا تربت على بطني أولًا، ثم عليّ أنا. كنتَ تحرص على الحديث مع الطفل كل يوم، حتى يعتاد على صوتك. ولم يعد حديثك إليه يضايقني، بل صار يطمئنني، فأنساق معه إلى النوم.

حرصنا على الاستمتاع بتلك الأوقات الأخيرة التي ستجمعنا وحدنا، قبل وصول المولود. كنا نراقب بطني، على الرغم من أن حجمه لم يتغير. كما كنا نقرأ لبعضنا كتب الحمل، ونشتري أغراض المولود، ونتحدث عنه كل يوم.

صرنا نكرر العبارات نفسها، ولكن بأساليب مختلفة. تشابهت الأيام، فلم أعد أقدر على التفريق بينها في ذاكرتي. أحيانًا نفكر في أسماء البنات، وأحيانًا أخرى في أسماء البنين، وأحيانًا نجمع معلومات حول أساليب التغذية السليمة، ونمو الطفل، والرضاعة الطبيعية.

أعرف عدد تلك الأيام السعيدة التي مرت علينا، لأنني كنت أعد أسابيع الحمل. ولكن في العموم، تقترن السعادة بنسيان الوقت، فنجد أنفسنا نغفَل الساعات، والأيام، والأسابيع، والشهور، لتمضي بنا الحياة كالقطار السريع.

⌘⌘

سألتْ الممرضة:

- متى كان أول يوم في آخر دورة شهرية؟

وقفتْ أمامنا سيدتان؛ أم وابنتها. كانت الابنة تترجم عبارات المرضة لأمها. أعرفهما بشكل عابر، فهما تسكنان بالقرب مني. قالت الابنة للممرضة:

- والدتي في سن اليأس.

فسألتها الممرضة:

- هل تتناول أي أدوية؟ وهل تعرضتْ للإجهاض أو الإسقاط؟

فأجابت الابنة بصوت خافت:

- نعم، تعرضتْ للإجهاض مرتين، وللإسقاط مرة واحدة.

كنتَ منزعجًا بعض الشيء، وأدرت رأسك جانبًا، في حين استطردتْ الابنة قائلة:

- إنها تعاني من نزيف حاد.

وقفتْ خلفنا سيدتان. سمعنا جميعًا كل كلمة، فلا توجد أي خصوصية في غرف الاستقبال بالعيادات. فالممرضات يطرحن علينا الأسئلة نفسها، ثم يدونن إجاباتنا حول مضادات الاكتئاب، والنوبات القلبية، والإجهاض، والسرطان، والإسقاط، وكأنهن لا يتعاملن مع بشر، بل مع استمارات.

تخيلت أنني أجلس في حجرة الانتظار أمام هذه السيدة، وأن فضولي يفكر في طرح الأسئلة التالية: "متى خضعتِ لعمليتيّ الإجهاض؛ قبل ولادة ابنتك أم بعدها؟"، "وهل سقط الجنين بعد عمليتيّ الإجهاض؟"، "ولماذا خضعتِ لعمليتيّ إجهاض من الأساس؟"، "هل لديكِ أبناء

آخرون؟"، "ألم تكوني مستعدة لتحمل نفقات طفل آخر؟"، "هل تعرضتِ للاغتصاب؟"، "هل يوجد سبب من الأساس؟"، "هل تحدثتِ مع زوجك حول تلك المواضيع؟". ولكن قبل أن أتفوه بأي كلمة، ستختفين خلف باب غرفة الفحص، وتتركينني وحدي مع فضولي. لماذا لا يطرح الأطباء هذه الأسئلة خلف الأبواب المغلقة؟

عندما جاء دورنا، لم تسألني الممرضة عن آخر دورة شهرية، بل رفعت نظَّارتها وابتسمت لك أولًا، ثم لي، وبعدها قالت:

- جئتما لفحص "السونار"!

ثم ابتسمت لك مرة أخرى، وبعدها لي، وكأنك أول رجل يطأ بقدمه داخل هذه العيادة، فرمقتُها بنظرة غاضبة، ثم اتجهتُ إلى حجرة الانتظار.

عندما دخلتَ، استقطبتَ إليك نظرات جميع السيدات، وارتسمت على وجوههن ابتسامة حمقاء، تقديرًا لحضورك معي. ولكنك لم تنظر إلى أي منهن، بل جلست على الكرسي، وأمسكت بإحدى المجلات، ثم أعدتها إلى مكانها، وشبكتَ ذراعيك؛ فهكذا تجلس دائمًا، عندما تشعر بالتوتر. همستَ لي بصوت خافت، لدرجة أنني لم أفهم أي كلمة، فقلتُ لك:

- ارفع صوتك!

فسألتني:

- أيجب أن أدخل معك غرفة الفحص؟

⌘⌘

صافحك الطبيب أولًا، ثم صافحني. لم تتحدثْ كثيرًا، بل اكتفيت بالرد على الأسئلة التي وجهها إليك. بدا الطبيب في مزاج جيد، وكان أكثر ودًا، ولطفًا. كما أنه ألقى بعض الفكاهات كي يخفف من حدة الأجواء.

دخلتُ الغرفة الأخرى استعدادًا للفحص، وسمعته يسألك:

- أهذه أول زيارة لك في عيادة طبيب أمراض نساء؟

فأجبتَه:

- نعم، هي كذلك!

سمعتكما تضحكان، وبعدها، سألك عن وظيفتك، ثم أخذ يتحدث معك عن التغيرات الكبيرة التي ستطرأ على حياتك، ولكني لم أسمع حديثكما بوضوح.

في أثناء الفحص، جلستَ منحنيًا على الكرسي، ونظرتَ إلى أسفل. وضع الطبيب الجل البارد على بطني، ثم أشار إلى شاشة "السونار"، حيث ظهر ظلٌ لجسد صغير، يحرك رأسه ورجليه. أنفه الصغير مستدير، وشفتاه ظاهرتان. كان يهز ساقيه، وينزلق لأعلى وأسفل، وكأنه يعلم أننا نراقبه.

سألنا الطبيب:

- أتسمعان نبضات قلبه؟

سمعتُ خفقانًا سريعًا، صاخبًا وميكانيكيًا. أهكذا يكون صوت القلب؟

أمسكتَ بيدي، ثم ابتسمت قائلًا:

- هذا طفلنا.

⌘⌘

نصحني الطبيب ألا أقلل من تناول الطعام، وألا أُفرِط في تناول الطعام، وأن أُكثر من البروتينات، والحديد والمغنيسيوم، وحمض الفوليك، وأن أمتنع عن السجائر، والكحول، والحليب الخام، والجبنة "الموزاريلا"، والمأكولات البحرية، والسمك النيء، و"السلامي"، والقهوة، والشاي الأسود، والوجبات السريعة، والأطعمة المعلبة، و"الكولا"، ومشروبات الطاقة. كما أوصاني بغسيل الفواكه، والخضروات جيدًا، وتجنُب عبوات السلطات الجاهزة.

نصحني أيضًا بتناول وجبتين أو ثلاث وجبات من السمك في الأسبوع، ولكنه منعني من ثعبان البحر، وسمك الفرخ، والترس، والتونة، والسوشي. كما طلب مني الامتناع عن البذور، وحلوى الـ"تيراميسو"، و"المايونيز"، بالإضافة إلى البيض النيء، لأنه قد يحتوي على "السالمونيلا"، والعصائر الجاهزة، لأنها قد تحتوي على الجراثيم.

كما منعني من أنظمة الغذاء النباتية، لأنها لا تضمن الحصول على النسب المطلوبة من البروتين، وفيتامين ب 12، والكالسيوم، والحديد. وشدد على ضرورة تجنُّب السكَّر، ومنتجات الدقيق الأبيض، والشوكولاتة، ورقائق البطاطس. وطلب مني ألا أتناول الأدوية دون الرجوع إليه، وأن أمتنع عن الرياضات المجهِدة، مثل: التنس، وركوب الخيل، والغوص. ولكنه نصحني بالمشي وبالسباحة. وأخيرًا، منعني من السفر لمسافات طويلة، وأخبرني أن ركوب الطائرة غير مسموح للحوامل بعد الأسبوع السادس والثلاثين.

وبعد أن أتحفني بكل تلك التفاصيل، قال لي:

- لا تقلقي، ستعتادين هذه الأوضاع شيئًا فشيئًا. لا تضغطي على أعصابك، ولا تُفْرِطي في التفكير، ولا تدفعي نفسك إلى الجنون. فكل شيء سيكون على ما يرام. إنك تمُّرين بأجمل تجربة في الحياة. وستتعرفين على مستوى آخر من الحب لم تشعري به من قبل. وحينها، ستتأكدين من أنه أفضل شيء يمكن أن يحدث لكِ في حياتك.

⌘⌘

جلستُ مع زملائي في اجتماعنا الأسبوعي، نتفق على الجداول الزمنية، وتوزيع المشاريع الجديدة. ثم تحدثنا عن زميلتنا، التي ستعود من إجازة وضع، لأنها كانت ترأس إحدى المشاريع، قبل أن يشغل منصبها زميل آخر.

قالت "ساندرا":

- يمكننا توسيع نطاق التسويق، أو البدء في مشاريع جديدة.

هز مديرنا رأسه، قائلًا:

- سنجد لها منصبًا جديدًا. فنحن لسنا مضطرين أن نوفر لها الصلاحيات نفسها. مكتبنا صغير، وعدد الموظفين محدود. وكان من المستحيل أن نترك منصبها فارغًا، حتى تعود.

قلتُ له:

- أتفق مع وجهة نظرك.

فاستطرد قائلًا:

– يمكنها أن تساعد في مكتب "السكرتارية". فلا أرى أي مانع في ذلك!

⌘⌘

سألتَني بحذر:

– ألا تعتقدين أنه قد آن الأوان كي نعيش معًا، لكي نجتاز تلك المرحلة قبل وصول المولود، فنستعد لاستقباله على مهل، وننهي جميع التحضيرات اللازمة؟ إنك تعيشين معي نصف أيام الأسبوع. ولكن ما دمنا الآن ننتظر مولودنا، فعلينا أن نسكن معًا يا "آندي". سنخطط لكل شيء كما يحلو لنا، وسيساعدنا أبي وأمي في سداد القرض، وسيتوليان العناية بالطفل عندما نذهب إلى العمل. فكري في تلك الإيجابيات، فهي رفاهية لا يتمتع بها كثيرون.

قلتُ لك:

– ولكنني أريد أن أنتقل من هنا، كي أعيش في المدينة. أريد أن أترك هذه القرية، وسكانها. ولا أريد أن أعيش مع والديّ زوجي، ولا أريد مطلقًا أن أحصل على أي قروض. لم أحلم أبدًا بامتلاك بيت خاص. كيف سنعيش مع والديك؟ ما هي الخيارات الأخرى التي تطرحها أمامي؟

فسألتني:

– ما الذي يزعجك في هذه القرية وسكانها؟ يمكنك أن تذهبي إلى المدينة في أي وقت، بل يمكنك أيضًا أن تحصلي على وظيفة هناك. ولكنّا لسنا مضطرين أن نسكن هناك، ونتكبد عناء الغلاء. كما أن سكان المدينة لا يختلفون عن السكان هنا كثيرًا.

قلت لك:

- إنك تختلق حججًا واهية!

فقلت لي:

- لماذا تُعقِّدين الأمور هكذا؟ أريد أن أسمع منك كلمة "نعم"!

فاستسلمتُ قائلة:

- حسنًا! ولكني أرفض أن يحصل والداك على نسخة من مفتاح شقتنا. ولا أريدك أن تُجبرني على زيارتهما أيام الأحد من كل أسبوع. ولا بد ألا نسمح لهما بالتدخل في شؤوننا، وتفاصيل حياتنا، وتربية طفلنا. كما أنني أود أن أفتتح "أتيليه" خاص بي، ولا بد أن تساندني، وتقف إلى جانبي أنا، لأنني صرت الآن عائلتك، وسنعيش حياتنا الخاصة!

فقلت لي:

- طلباتك أوامر! مادمتِ ستسكنين معي أخيرًا!

⌘⌘

دائمًا ما كان يراودني حلمًا غريبًا؛ أركب قطار الموت، دون أن أربط حزام الأمان بشكل سليم. وما إن تبدأ اللعبة في الحركة، حتى أنتفض، ويجتاحني الخوف من الموت. فأستيقظ بعدها، لأجد جسدي يرتعش، وقلبي يضطرب!

الفصل الرابع



في الكنيسة، ركعتَ بجواري، وأخذتَ تُصلي. تحركتْ شفتاك، دون أن تُصدر صوتًا. صحيح أنك لا تحفظ النص، ولكنك حاولتَ أن تردده، لأنك إشبين العريس.

امتلأت المقاعد، وتداخلت الأصوات، ولكن معظم الضيوف لم يرددوا الدعاء بشكل سليم: "طوبى لثمار بطنك. صلي من أجلنا، فنحن الخطاؤون".

وقف "دانيال" و"آنا" متشابكي الأيدي عند المذبح، وبدا عليهما التوتر. فاح الهواء برائحة البخور، في حين تردد صوت القسيس الرتيب في أرجاء الكنيسة، حيث تحدث عن المحبة، والخطايا، والخلود، والسراء، والضراء.

بدتْ "آنا" مثل الأميرات. كان فستانها مرصعًا بالزخارف والدانتيل، وطرحتها مشبوكة بحبات صغيرة من اللؤلؤ. كما وقف خلفها بعض الأطفال، ليحملوا ذيل فستانها الطويل.

أمسك "دانيال" يدها قائلًا:

- أنتِ زوجتي أمام الرب. أعدكِ بالوفاء في السراء والضراء، وفي الصحة والمرض، حتى يفرقنا الموت. سأحبكِ، وأحترمكِ، وأكرمكِ طوال أيام حياتي. فلترتدي هذا الخاتم دليلًا على حبنا ووفائنا: "باسم الأب والابن والروح القدس".

وضع القسيس شاله حولهما، ثم بارك لهما. وبعدها، رسم العروسان إشارة الصليب فوق جبينهما بخشوع، وتوجه والداهما إلى المذبح. كانت والدتك تمسح دموعها بالمنديل.

بعدما انتهت المراسم، سمعتُ عمك يقول:

- هؤلاء القساوسة يتحدثون كثيرًا. كان من الممكن أن يختصروا مراسم القدَّاس.

ألقينا حبات الأرز على العروسين السعيدين، ونثرت الفتيات الصغيرات أزهارًا بيضاء على الأرض. وبعدها، كتبنا أمانينا لهما على قطع من الورق، وربطناها ببالونات الهيليوم، ثم أطلقناها بعد ذلك في السماء.

رأيتُ والدك يكتب في ورقته: "فلتهنآ معًا بحياة سعيدة، ولتنعما بعديد من الأبناء!"

بعدما تركتُ بالوني يطير، أخذتُ أراقبه في السماء، التي امتلأت ببالونات بيضاء وأرجوانية، تحملها الرياح بعيدًا، حتى اختفت في الأفق.

طغى الأبيض والأرجواني على المكان، حيث تزيَّنتْ الطاولات بأزهار اللافندر والورد الأبيض، وشموع بيضاء وأرجوانية، وفوانيس صغيرة، وكؤوس ضخمة، فوق المفارش البيضاء. كما وجدنا على جميع الطاولات أكياسًا صغيرة من زهور اللافندر، منقوشٌ عليها أحرف مخروطية تقول: "من يزرع الحب، لا يحصد إلا الحب".

كانت مائدتنا بجوار العروسين، وتطل على جميع الطاولات الأخرى. رأيتُ أخت "آنا" تتحرك بارتباك، في حين توالت العروض، واحدًا تلو الآخر، حتى وصلنا إلى فترة الاستراحة وتناول العشاء. وبعدها، شاهدنا فيديو مصورًا لـ"دانيال" و"آنا" في مراحلهما العمرية المختلفة. ثم حان الوقت، كي تُلقي كلمتك، فنهضتَ من مكانك، وارتجف كأس النبيذ في يدك. كنتَ ترتدي بذلة أنيقة، ووضعت وردة بيضاء في جيب صدرك، كما فاحت رائحتك بعطر اللافندر. بدأت الخطبة قائلًا:

- لا يمكنني أن أتخيل عروسين أكثر وِفاقًا وسعادة من "دانيال" و"آنا". لقد أضفى حبكما إثراءً على حياتكما، وعلى حياتنا أيضًا. أتمنى لكما أعوامًا مديدة من السعادة!

صفَّق لك جميع الحضور. وحالما جلستَ، مسحتُ على ظهرك، فجذبتني إليك وغمرتني بقبلة طويلة وقوية، ثم همست في أذني كلمة "أحبكِ". وبعدها نادتنا أخت "آنا" قائلة:

– هيا يا بنات! سترمي العروس باقة الورد الآن!

وقفتْ "أنا" على السلم، ثم استدارت. ولكني ظللت مكاني، فسألتني أمك:

– ما بكِ يا "آندي"؟

فأجبتها:

– أشعر بالدوار. لا بد أن أظل جالسة.

فقالت لي:

– عليكِ أن...

فقاطعتها قائلة:

– كلا! فأنا أعاني من انخفاض في ضغط الدم.

رمقتني بنظرة شائكة، ثم وخزتْ أبيك في جنبه، وهمست له شيئًا في أذنه.

تعالت ضحكات النساء وصرخاتهن ترقبًا لباقة العروس، حتى الفتيات الصغيرات وقفن خلف "آنا". ثم حانت اللحظة الحاسمة، وقالت العروس:

– هل أنتن مستعدات؟

ثم استجمعت قوتها، وألقت بباقتها بعيدًا، فسقطت على الأرض. وإذا بجميع النساء يركضن إليها مثل القطيع، ويلقين بأنفسهن على الأرض. وما إن أمسكت بها إحداهن، حتى رفعتها عاليًا بنظرة انتصار وسط تصفيق الحضور وهتافاتهم.

رقصتْ "آنا" مع عريسها، ورفعتْ فستانها بيد واحدة، حتى لا يلامس الأرض. بدا عليهما التعب، ولكنهما كانا في غاية السعادة. ضممتني إليك ونحن نرقص بجوارهما، واتكأ رأسك على كتفي، وتسللت رائحتك إلى جسدي، ثم همست لي قائلًا:

– كيف لي أن أعيش من دونك؟ صار كل شيء على أكمل وجه. أتتطلعين إلى حياتنا الجديدة؟

فأجبتك:

– نعم، بكل تأكيد. فأنا أريد أن أعيش معك، ولكني فقط متخوفة من أبويك، لأنهما...

وقبل أن أكمل الجملة، أخذتَ تدور بي مرة بعد مرة، حتى أُصِبتُ بالدوار، وسقطتُ ضاحكة بين ذراعيك. وحينها، قلت لي:

– لقد تجاوزنا هذا كله، ونترقب الآن مولودنا.

جلس والداك أمامنا. لم تتغير تعابير وجهيهما طوال الأمسية، فقد كانا يشعان بهجة وفرح.

⌘⌘

"آندي حامل"؛ كلمتان غيرتا حياتي.. كلمتان ستبوحان بسرنا إلى العلن!

في البداية، سيطرحون علينا الأسئلة على استحياء، وبعد ذلك سيتدخلون في شؤوننا: "منذ متى وأنتِ حامل؟"، "لماذا لم تخطرانا بالحمل طوال هذه المدة؟"، "هل الجنين في صحة جيدة؟" "هل هي

بنت؟"، "لا تظهر عليكِ أي علامات!"، "متى موعد الفحص التالي؟"، "من هو طبيبك؟"، "متى ستعيشان معًا؟"، "متى سنجدد البيت؟"، "متى ستبدأ إجازة الوضع؟"، "متى سنشتري الأثاث الجديد؟"، "أي غرفة ستخصصين للطفل؟"، "هل ستحتاجان إلى سيارة ثانية؟"، "هل اخترتما اسم المولود؟"، "لماذا لا تهتمين بطعامك؟".

امتزجت الأصوات مع الضحكات، فتحولت إلى ضوضاء عارمة، لم أقدر على تحملها.

"ألا تلاحظان أنكما صرتما متشابهين؛ في الملامح، والصوت، وطريقة الكلام؟".

كثيرًا ما ترددت هذه العبارات على مسامعي في الآونة الأخيرة، وما هي إلا البداية.. إنها دوامة ستسحبنا معها أكثر فأكثر.. بل ستسحبني وحدي، وستطفو أنت على السطح بكل هدوء.

كلما نظرت إليك، وجدتك مبتسمًا. فمنذ أن علمت أنك ستصبح أبًا، لم تفارق الابتسامة وجهك. ها أنت ذا تنعم بحب والديك! إنك حقًا سعيد.. لدرجة يصعب تحملها!

لطالما تمنيتَ تلك الحياة العائلية، ولكني لم أنتبه لذلك منذ البداية. لم يظهر فيك هذا الجانب، إلا الآن، بعدما وصلتَ لمنتصف العمر، وصرتَ تتوق إلى تكوين أسرتك الخاصة.

أغمضتُ عينيّ وأخذت أعد إلى عشرة. تراءت لي والدتي، تختفي شيئًا فشيئًا. وتراءى لي أبي، يرمقني بنظرته اليائسة، التي طالما أثارت غضبي.

قلتُ لنفسي: "هذه هي عائلتي الآن؛ حماتي، حمايا، زوجي، وطفلي". أرفقتهم بضمير الملكية، لأنهم صاروا عائلتي، وجزءًا مني. جمع طفلي بيننا، وربط خيوط حياتنا معًا. وسيزداد ترابطنا صلابة على مر السنين، ولن يتمزق أبدًا.

عائلتي هي مصدر الدعم.. ستأخذ مني، ولكنها أيضًا ستعطيني.. عائلتي هي مستقبلي، ومصدر سعادتي وأماني. إنها موطن القلب، ومبعث الفرح.. فمعها تبدأ الحياة، ولا ينتهي الحب أبدًا.. ومادامت لي عائلة، لن أصبح وحيدة أبدًا.. فالعائلة هي كل ما يتبقى لك، عندما يتركك الآخرون.. قلت لنفسي: "هذه هي حياتي الآن".

راقبتك وأنت تقف مع والديك بعيدًا، تزف إليهما الخبر. اتسعت عينا حماتي ولمعت، وظلتْ ممسكة بيدك، وكأنك ما زلت طفلها الصغير. كانت في غاية الأناقة، كعادتها، حيث ارتدت أساور وقلائد تليق بفستانها، وصففت شعرها الأحمر بطريقة عصرية، فبدت فائقة الجمال، وأصغر من عمرها بعشر سنوات. بدا على وجهها شيء من التأثر، على الرغم من أنها تظاهرت بالفرح، وكأنها بأت مشاعرها وراء واجهة زائفة. أما حمايا، فجلس وكأنه غير معني بالزفاف، حيث أسند ذراعيه على بطنه الكبير، وجلس كما يجلس رجل البيت، الذي يشغل حيزًا كبيرًا من المقعد، ولا يتكلم إلا قليلًا، ولكن كلامه له وزن، وعندما تثرثر زوجته، يصرف نظره عنها باستياء.

عندما تضايقني والدتك بحديثها، يغمز لي بعينه، وكأنه في صفي. ثم يقول لي بعدها: "دعي كلامها يدخل من أذن، ويخرج من الأخرى!" ولكن ما إن تتحدث معي حول موضوع الإنجاب، حتى يقف في صفها هي، ويترك لها الكلمة الأخيرة.

عندما لاحظ نظراتي إليه، غمز لي بعينه، ثم نهض من مكانه، وأحضر زجاجتي بيرة باردة؛ واحدة له، والأخرى لك، ففتحها ووضعها أمامك قائلًا:

– في صحة حفيدنا، وفي صحة "آندي"، وفي صحتنا جميعًا!

⌘⌘

أمسكتَ يدي برفق، وأخذت تحكي لهما عن انتقالي إلى بيتك. ولكنك هذه المرة لم تشكُ من شروطي، أو مخاوفي. ولم توبخني، لأنك لا تشعر معي بالأمان الذي طالما حلمت به. ولم تشكُ من أنني لست المرأة التي تتوق إلى العيش معك، وإنجاب طفلك. كانت سعادتهما بنا لا توصف!

عندما عدنا إلى البيت، قلتَ لي:

– لماذا أنتِ متشائمة هكذا؟ حاولي أن تتقبلي الوضع بصدر رحب. أبي وأمي مشغولان بحياتهما، ولن يتدخلا في شأننا. أتعتقدين أننا سنراهما كل يوم لأننا سنعيش معهما في المبنى نفسه؟ إنهما أيضًا مشغولان بعملهما وأمورهما الشخصية، وكثيرًا ما لا يوجدان في البيت من الأساس. لا تفكري كثيرًا في المستقبل، واتركي الأمور تأخذ مجراها بشكل طبيعي. وأنا سعيد لأن هناك من سيساعدنا في العناية بأطفالنا.

فقلت لك مُصحِحَة:

– طفلنا! مفرد!

فضممتني إليك قائلًا:

– سيكون كل شي على ما يرام. فنحن لبعضنا، وهذا هو أهم شيء.

ثم ربتَّ على رأسي، وحاولتُ أن أصدقك. ظللت أتخيل بيتنا الجديد، والحمام الجديد، والمرسم الخاص بي، وأول حديقة سأزرعها، وأول مقعد للاستلقاء سأضعه في حديقتي. فكرت أيضًا في شجرة الكريز، التي ستصل ثمارها إلى شرفتنا في الربيع، وفي غرفة الأطفال، التي سنطليها بألوان زاهية، ونضع فيها مهدًا صغيرًا.

⌘⌘

مع كل فحص "سونار"، كان طفلي يظهر بشكل مختلف. ها هو قد صار يفتح فمه ويغلقه، ويقطب جبينه، ويمص إبهامه، ويطفو في دفء السائل الأمنيوسي، ويشرب منه. تطور الهيكل العظمي، وتصلبت العظام، ووصل محيط الرأس إلى مائة وعشرين ملم. ازداد وزنه يومًا بعد يوم، حتى صار ثمانين جرامًا؛ بحجم البرتقالة الصغيرة، أو البصلة، أو الفأر الصغير، أو السلحفاة الصغيرة، أو قبضة اليد.

⌘⌘

جلسنا معًا في مطبخ "مارلينا" و"لوكاس" نتناول العشاء. كان وجهك يشع سعادةً، فقد أردتَ أن تزف إليهما الخبر بفارغ الصبر. وما إن فرغتْ صحوننا حتى قلت لهما:

- "آندي" حامل!

فابتسمتُ قائلة:

- نعم، أنا حامل.

عانقك "لوكاس" وربت على كتفك، وعانقتني "مارلينا" وقرصت ذراعي بحماس. وبعدها، سألتني عن كافة التفاصيل: عن صحتي، وردة فعل والديك، ونتائج الفحوصات، وإجازة الوضع.

أرادا أن يشاهدا صور "السونار"، فأخذنا نشرح لهما مكان الرأس والساقين. ثم قلنا:

- كثيرٌ من التفاصيل لم تظهر بعد.

صرنا نردد العبارات نفسها، ووجهانا يشعان بهجة وسعادة: "في البداية، كانت صدمة بالنسبة لي، ولكني الآن سعيدة"، "مررنا بفترة صعبة، ولكننا تجاوزناها"، "نحن الآن سعيدان، ولا يمكن لأي شيء أن يفرق بيننا"، "ننتظر طفلنا على أحر من الجمر"، "نحمد الله أنه في صحة جيدة"، "بعد خمسة أشهر سنصبح ثلاثة".

كما حرصنا أيضًا على إظهار سعادتنا بلغة الجسد، فكنا نشابك ذراعينا، ونلامس بعضنا مع كل فرصة. شعرت أننا نضجنا معًا، كما لو كنا توأميْن متلاصقيْن.

سألنا "لوكاس":

- هل ستسكنان معًا؟

فأجبتَه:

- نعم، أخيرًا ستعيش "آندي" معي. سنجدد شقتي في مبنى والديّ.

فقالت "مارلينا":

- يا إلهي! لا يمكنني أبدًا أن أحتمل وضعًا كهذا!

فقلتَ لها:

- لماذا لا نستفيد مما هو متاح لنا؟ فأسعار العقارات صارت باهظة. كما أن الأوضاع ليست بهذا السوء. فنحن سنشيد مدخلًا خاصًا بنا. كما أننا لن نرى والديّ كثيرًا.

فقالت "مارلينا":

- لا يمكنني أبدًا أن أحتمل هذا الوضع مع والديّ "لوكاس"، أليس كذلك يا "لوكاس"؟

فضحك "لوكاس" قائلًا:

- كلا البتة! ولكن إن كانت علاقتهما بكما جيدة، فلمَ لا؟

ازدادت خفقات قلبي من شدة القلق. أمسكتَ يدي بقوة، فتركتُ يدك تضم أصابعي، وقلتُ لهما:

- ننتظر زيارتكما، حالما ينتهي البيت.

ثم أخذتُ أحكي لهما عن أدق تفاصيل الحمل، وكأنني أول امرأة حامل يشهدها العالم.

⌘⌘

كنا نواظب على زيارة أصدقائنا، ووالديك، وأخيك، وأعمامك، وعماتك، وأجدادك، وأبناء عمومتك، بل وحتى هؤلاء، الذين تربطنا بهم علاقة

سطحية. كان علينا أن نزف الخبر إلى الجميع، فالمرأة لا تحمل كل يوم! كم مرة يمكن أن يحدث ذلك في حياتنا؟ كان لا بد أن نشرك الجميع في فرحتنا، حتى تنمو، وتزداد، وتنتقل إلى الآخرين.

قلتَ لي بسعادة:

- انظري كيف يغارون منا.. لا أحد سعيد مثلنا، ولا أحد لديه زوجة جميلة مثلي.. إننا في أفضل حال.

وهكذا ظل وجهك يشع فرحًا، مع كل مرة قلت فيها عبارة: "آندي حامل!"، لتستطرد بعدها قائلًا: "أترغبون في مشاهدة الصور؟ هذا رأسه، وهنا الساقان، وهنا اليدان.. قلبه ينبض بسرعة وبصوت عالٍ، لدرجة أنني لا أصدق أنه طفلنا". وهكذا ظللت تكرر العبارات نفسها مرة بعد مرة، وتصف هول المفاجأة، ومدى فرحتنا بها، وترقُبنا لطفلنا بفارغ الصبر. كنت تستخدم كلمات من قبيل: "مرحلة جديدة من الحياة"، و"المسؤولية"، و"الأسرة"، و"الإثراء"؛ تلك الكلمات التي طالما رددها الآخرون على مسامعنا، حتى أصبحت من مفرداتك التي تستخدمها كثيرًا.

⌘⌘

طرح علينا "دانيال"، و"آنا" الأسئلة نفسها. وهكذا صرنا ندور في حلقة مغلقة، ونُجري المحادثات نفسها مرارًا وتكرارًا، حيث نسمع الأسئلة نفسها، ونقدم الإجابات نفسها.

هل سنظل هكذا، مع كل حدث مهم في حياتنا؟ أولًا الحمل، ثم تجديد البيت، ثم الولادة، ثم الطفل، والحفاضات، ورياض الأطفال، والمدرسة؟

سألتني:

- لماذا أنتِ صامتة يا "آندي"؟

ثم مسح أخوك على خدي قائلًا:

- هل تشعرين بالتعب؟

فأجبته:

- إنها الهرمونات، فأنا أشعر بالإرهاق منذ عدة أيام، لدرجة أنني يمكن أن أغفو هنا الآن.

فسألَني:

- أترغبين في الاستلقاء على الأريكة؟

ثم أحضر لي غطاءً.

تظاهرتُ بالنوم، وسمعت صدى ضحكاتكم ودقات كؤوسكم يتردد في البيت. قلتَ لهما:

- كيف يمر الوقت بهذه السرعة؟ من يصدق أنني سأصبح أبًا؟ لقد حققت الآن كل ما تمنيته طوال حياتي. وأنتما أيضًا ستعيشان تلك التجربة في الوقت المناسب.

ثم شربتم كأسًا في صحتنا، وصحة طفلنا!

⌘⌘

عندما عدنا إلى بيتك، سألتك:

- أيجب أن نزور كل هؤلاء الناس؟

فأجبتني مستنكرًا:

- ما خطبك الآن؟ هؤلاء ليسوا مجرد ناس يا "آندي"، إنهم عائلتي.

فسألتك:

- لماذا لا نحتفظ بخصوصيتنا أبدًا؟

فقلت لي:

- لم أعد أفهمك. ماذا عساي أن أفعل؟ كل ما أفعله خطأ، وكل ما أقوله خطأ.

قلت لك:

- أنا لا أفهم من أين جاءتك تلك الطمأنينة يا "جورج"؟ إن كلمة "لكن" ليست في قاموسك على الإطلاق. لا أراك تشك ولو لمرة واحدة. إنك حقًا تبالغ في تبسيط الأمور. قررتَ أن تتخذ مسارًا واحدًا وتمضي فيه حتى النهاية. أتعتقد أننا عشنا كافة تجارب الحياة؟ أتعتقد أننا فعلنا كل شيء؟ هل وصلنا إلى درجة من الاكتفاء تجعلنا نكرس ما تبقى من حياتنا لتكوين تلك الأسرة التي تحلم بها؟

⌘⌘

ينمو طفلي في بطني بلا هوادة. صار يتثاءب، ويحرك رأسه، ويمد ساقيه وذراعيه، وكأنه يُدرِّب عضلاته. وصار يستحوذ كل يوم على مساحة أكبر في بطني. سألتني:

- لماذا لا تتحدثين مع والدك؟ ألا ترغبين في المحاولة على الأقل؟

أجبتك:

- لن تفهم موقفي!

فقلت لي:

- العائلة هي العائلة، ولا يجوز أبدًا أن نمحيها من حياتنا ونلقي بها وراءنا.

فقلت لك:

- العائلة ليست قاعدة أساسية في الحياة! فأحيانًا لا ينجح أفرادها في التآلف.

- أنا لا أوافقك الرأي.

- ليست كل العائلات مثل عائلتك. أتعتقد أنني لم أستمع إلى كمٍ كافٍ من النصائح؟ أرجوك لا تتحفني بنصائحك أنت أيضًا! لقد صارت لديّ عائلتي الآن.

- لماذا لا تفهمين؟ ألا تريدين أن ينعم طفلنا بحنان جده؟

- طفلي لديه عائلته!

- ظننت أن طفلنا سيغير علاقتك بوالدكِ!

- ومن أين جاءك هذا الافتراض؟

⌘⌘

وقفتُ أمام النافذة، بعدما غمرني الشعور بالوحدة، وعدم الطمأنينة. قرعتْ الأمطار على الأرض، ومزقت أوراق الشجر، حتى طغى صوتها على السكون. استنشقتُ الهواء البارد، بينما اختبأتْ الطيور تحت الأسقف،

وتوارى الناس في بيوتهم. تأملتُ أجواء الخريف، ولكني بكيتُ، على الرغم من أن حياتي على أتم ما يرام.. بكيتُ، على الرغم من وصولي إلى رابع شهور الحمل.. بكيتُ، على الرغم من أنني سعيدة معك.. بكيتُ، على الرغم من أنني معك.

⌘⌘

سألتني "مارلينا":

– ألن تلدي ولادة قيصرية؟ لا يمكنني أبدًا أن أتحمل آلام الولادة الطبيعية. أتتخيلين أنهم سيخرجون رأسًا حجمه ثلاثين سنتيمترًا من بين ساقيك؟ أتتخيلين تمزُّق العجان، وتلك التفاصيل المقززة؟ إنها مخيفة! يُسَوِّقون للولادة الطبيعية، وكأنها تجربة جميلة. ولكن في حقيقة الأمر، ما هي إلا نزيف حاد، وإفرازات مقززة. على الأقل مع الولادة القيصرية، لن تدركي تلك التفاصيل، وستستيقظين لتجدي بين ذراعيكِ طفلًا نظيفًا.

سألتها "أليكس" مستنكرة:

– ماذا تقولين؟ أي الأفلام تشاهدين؟

فسألتها "مارلينا":

– ألن تفضلي أن يفتحوا بطنك؟

فأجابتها "أليكس":

– إن أنجبت طفلًا آخر، سأختار الولادة الطبيعية. دون مسكنات أو مستشفى أو أطباء. أريد أن أكون على سريري، بعيدًا عن هواء المستشفى، والأجهزة الطبية.

فقالت "مارلينا" ساخرة:

– فلتنتحري إذًا! الانتحار أهوَن لكِ.. نحن لسنا في العصور الوسطى يا عزيزتي.

فقالت "أليكس":

– وما علاقة العصور الوسطى بما أقول؟ ألا تفكرين في الولادة في المنزل يا "آندي"؟

⌘⌘

يقُلن: عليكِ أن تذهبي إلى طبيبي، فلا يوجد أفضل منه.. عليكِ أن تشربي لترين من عصير الفيتامينات المتنوعة كل يوم.. لا بد أن تجهزي غرفة الطفل الآن.. عليكِ أن تدلكي صدرك.. لا بد أن تعالجي علامات التمدد التي ستظهر على بطنك.. هل سترضعينه رضاعة طبيعية؟ هل اخترت الاسم؟ ألا تفكرين في إنجاب طفل ثانٍ؟ لقد آن الأوان لذلك!

يقُلن: لا تفرطي في تناول الطعام.. كلي لشخصين، لا لشخص واحد.. الولادة القيصرية ليست ولادة حقيقية.. أليس الحمل خطرًا في عمرك؟ هل يمكنني أن ألمس بطنك؟ لا تظهر عليكِ علامات الحمل بعد.. هل خططتِ للحمل؟ كيف تفكرين في الاكتفاء بطفل واحد فقط؟ لا يمكنك ممارسة الرياضة.. عليكِ أن تعتني بعلاقتك الحميمية مع "جورج".. عليكِ أن

تغيري نظامكِ الغذائي.. طفلكِ حجمه صغير جدًا بالنسبة للأسبوع السادس عشر.. لستِ أول امرأة حامل.. لا بد أن تمارسي الرياضة بانتظام.. ستلدين فتاة بكل تأكيد.. خذي الأمور ببساطة.. هل أنتِ خائفة من الولادة؟ لقد فعلتها سائر النساء من قبلك!

يقُلن: امتنعي عن التدخين.. إنه ولد بكل تأكيد.. أهم شيء هو الطفل.. ظهرت عليكِ علامات الحمل.. سيجارة واحدة لن تضر الجنين.. لا يزال الثديان صغيرين جدًا للرضاعة الطبيعية..

تجنبي الشوكولاتة.. خذي الأمور ببساطة.. الرضاعة الطبيعية ليست مهمة كما يزعمون.. عليكِ بالرضاعة الطبيعية.. هل ستقودين الدراجة؟ هل ستذهبين إلى الحفلة الموسيقية؟ لا تشتري أغراض الطفل الآن، إنه فأل سيئ.. أتحتسين القهوة؟ لا بد أن تفكري جيدًا في اسم المولود.. ألن تتزوجا؟ ألم تشعري بالطفل بعد؟ تبدين متعبة.. زاد وزنك.. تبدين شاحبة!

يقُلن: استمتعي بحياتكِ ما دمت تستطيعين.. ما هذا الهراء؟ ما مصدر معلوماتك؟ عندما كنتُ حاملًا، حدث لي كذا وكذا.. لا تستمعي إلى طبيبك، بل استمعي إليّ.. تقلبات المزاج طبيعية.. التعب طبيعي.. الاكتئاب طبيعي!

⌘⌘

صار المكان الذي أمقتُ الذهاب إليه، هو المكان الوحيد الذي لا أتحدث فيه عن حملي، بل أتحدث مع زملائي عن مواعيد التسليم، ونسبة رضا العملاء. كما انشغلتُ بمهام معينة في جدول زمني محدد.

كعادتي، كنتُ أفحص صور المنتجعات الفندقية، وحمامات السباحة، وأماكن "الساونا"، ومناطق التنزه فوق الجبال. ولكن الجديد، هو أن تلك الصور التي طالما أصابتني بالملل، صارت المبعث الوحيد للراحة والهدوء. كما طرأتْ لي أفكارًا جديدة، لاقت استحسان مديري، وحازت إعجابه.

كنتُ أرتدي سترات فضفاضة، حتى لا يظهر بطني الذي كان يكبر يومًا بعد يوم. وعندما أجلس مع زملائي في المطبخ، نتحدث عن عطلة نهاية الأسبوع. فهنا، لا أحد يسأل عن صحتي، ولا أحد يراقب التغيرات التي تطرأ على جسدي. وإذا دخنت سيجارة، لا يرمقني أحد بنظرات التوبيخ.

وجدتني أعمل لساعات إضافية، على الرغم من أنك نصحتني بتقليل ساعات العمل.. وكنتُ أستمتع بالجلوس مع زملائي في المطبخ، على الرغم من أنك حذرتني من التدخين السلبي. لم تطرأ أي تغيرات على روتيني الوظيفي، بل ربما استعذبته، وصار أهون عليّ من ذي قبل.

أُدرك تمامًا أنني وضعت نفسي داخل فقاعة صغيرة، على وشك الانفجار في أي لحظة!

⌘⌘

نظر المدير إلينا، وانتظر قليلًا قبل أن يقول:

- جاءنا عرض من وزارة الثقافة، ولا بد أن نبذل قصارى جهدنا، كي ننال إعجابهم.

فقالت "ريتا" بحماس:

– رائع! لعله يتيح لنا فرصًا جديدة!

فقال المدير:

– يريدون أفكارًا جديدة، ومتميزة، وفنية.. "آندي" هل أنتِ مستعدة لتولي هذه المهمة؟

تسارعتْ نبضات قلبي. كان عليّ أن أُصرِّح له بحملي، ولكني وجدت نفسي أقول:

– لا شيء سيجعلني أكثر سعادة من هذه الفرصة. متى يمكننا مناقشة التفاصيل؟

أخذتُ أصمم خطوطًا جديدة للحروف؛ أرسمها بالقلم أولًا، ثم أعدِّلها على جهاز الكمبيوتر. كما صممت عدة رسومات وأشكال. والغريب، أنني كنت أنسى الوقت، فما إن أبدأ في العمل، حتى يحل المساء، فأعود إلى المنزل مرة أخرى، وأظل أفكر في التصميمات، وأجمع بين الخطوط والصور في رأسي.

⌘⌘

في يوم خريفي دافئ، قررنا أن نتجول مع والديك فوق جبال الألب. سرنا بالسيارة فوق الطرق الجبلية عبر الغابات الكثيفة، حيث لمعت أوراق الشجر بكل الألوان. وبعدها، تمشينا لمسافة صغيرة، ثم صعدنا إلى القمة بالتلفريك. لم نسر على قدمنا سوى لساعة واحدة ذهابًا، وأخرى إيابًا، حتى لا أُرهق نفسي. لم يكن الطريق منحدرًا، بل مستويًا وكأننا نسير في الشارع. طلبوا مني جميعًا أن أُنبههم إذا شعرت بالتعب، حتى نعود على الفور. ولكني قلتُ لهم:

- سأكون بخير.

وحاولتُ قدر استطاعتي أن أرد بلطف.

كنا نسير ببطء شديد. تمشيتُ بجوار أمك، بينما سبقتَني أنت بجوار أبيك. لم أسمع من أحاديثكما سوى بضع مقتطفات: "بيت"، و"سور"، و"موقع بناء"، بينما حكتْ لي والدتك عن رحلاتها وجولاتها في الجبال.

تعالت ضحكاتنا وتحدثنا كثيرًا، فقد كان حقًا يومًا جميلًا. وبينما هفَّت نسمة الهواء الباردة، تأملتُ الهدوء الذي ساد الأجواء. لم نسمع سوى صوت خطواتنا فقط، ممزوجة بدقات الأجراس التي ترتديها الأبقار، وعرير الصراصير. ذكرتني رائحة الغابات الصنوبرية بطفولتي. ومع كل صوت تسلل إلى أذنيّ، وجدتني أستحضر ذكريات كاذبة، لم يكن لها وجود من الأساس؛ رأيت أمي تسير أمامي، ومن خلفها أبي. هكذا، ظهرا لي من الخلف، حيث مضت أمي سريعًا إلى الأمام، ثم استدارت لي قائلة: "هيا الحقي بنا!"

عندما وصلنا إلى الكوخ الجبلي، جلستَ بجواري واضعًا ذراعك حولي، بينما أخذتْ والدتك تبحث في قائمة الطعام عن الوجبات المسموحة لي. أما والدك، فبدا عليه أنه ترقب لحظة جلوسنا بفارغ الصبر، كي يحدثنا في أمر مهم، وبالفعل قال لنا:

- نريد أن نساعدكما.. دعونا ندفع ثمن الأثاث، وجزءًا من تكاليف التجديدات.

فتبعته والدتك قائلة:

- يمكن يا "جورج" أن يساعدك بابا في هدم بعض الجدران، لكي نخلق مساحة معقولة للمطبخ، كما تتمنين يا "آندي". أفكر أيضًا في تحويل البلكون إلى تراس، وتركيب نظام تدفئة تحت البلاط، وأرضية باركيه جميلة. سنجدد كل تلك التفاصيل يا "آندي"، وسترين ذلك بنفسك. كل شيء سيكون جميلًا! ولن تقترضا مبلغًا كبيرًا، وستتمكنان من سداده في غضون بضع سنوات، فالأمر بسيط.

قلتُ لها:

- لا شك أن المطبخ الجديد سيكون جميلًا، وكذلك التراس. إنني حقًا متحمسة لتجديد البيت، وأعلم أنه سيبدو رائعًا.

لم تشاركنا الحديث، بل استكملت مناقشاتك مع والدك. فقد استقرت أمورك، وحصلتَ على كل ما تريد!

وبينما فاح الهواء برائحة الشواء، جُلت ببصري فوق قمم الجبال، ثم تأملت الماعز التي ترعى في الربوع أسفل منا، وبعدها رأيت والدتك تبتسم لي قائلة:

- يا له من يوم جميل!

⌘⌘

قلت لي:

- لا بد أن تخطري مديرك بحملك.

فقلت لك:

- لا يزال أمامي متسع من الوقت.

- أرى ألا تنتظري أكثر من ذلك.

- لا أريد أن أتسرع!

- إنكِ مُلزَمة بإخطاره! كان عليك أن تفعلي ذلك منذ فترة طويلة.

- سأفعل. دعني أقرر متي.. ما خطبك؟

⌘⌘

في الحلم، أرى نفسي في أماكن غريبة. أحيانًا أجدني في منزل مليء بالسلالم، فأظل أصعدها واحدًا تلو الآخر، ولكنها لا تنتهي، بل تظل تظهر خلف بعضها، وتقودني في اتجاهات مختلفة.. وأحيانًا أجدني في الصحراء، أقود سيارة "چيب" فوق الكثبان الرملية، فيتطاير الغبار في الهواء، ويحجب عني الرؤية، ولكني أستمر في القيادة.. وأحيانًا أجدني أسبح في البحر مع مجموعة من الأسماك، ولكني لا أتحرك من مكاني، ثم تأتي دوامة، وتسحبني إلى أعماق الهاوية.. وأحيانًا أجدني أسقط وأسقط وأسقط، أكثر فأكثر في أعماق لا متناهية.. ودائمًا ما تظل نهاية تلك الأحلام مفتوحة!

وكثيرًا ما تراودني أيضًا أحلامٌ بلحظة الولادة؛ تارة أحلم أنني أطلب رقم النجدة، ولكنه يظل مشغولًا.. أو أنني وحدي في البيت، بينما يأتيني الطلق.. وتارة أحلم أنني أُنجب توأمًا.. أو أنك تغيب عن الولادة، لأنك لم تسمع الهاتف، بسبب انشغالك في العمل. وفي إحدى المرات، حلمت أن المرأة على السرير المجاور لي في المستشفى، فارقت الحياة أثناء الولادة. ولكني دائمًا أرى والدتك بجواري، ممسكة بيدي، وملامحها تشبه أمي!

⌘⌘

تتكون شقتك من ثلاث غرف، وتبلغ مساحتها سبعين مترًا مربعًا. جميع حجراتها مشرقة، ولكنها صغيرة للغاية. كما أن مساحة الحمام ضيقة، وبالكاد تسمح بالالتفاف. أما المطبخ، فبابه بلاستيكي.

أرضية "الباركيه" قديمة، والأثاث قديم الطراز، فهو لجدتك؛ فمائدة الطعام مثلًا مصنوعة من الخشب الداكن، وبها درج يحوي أدوات الطعام الفضية، والكراسي الخشبية منحوت على ظهرها شكل قلب. أما الستائر، فمرسومٌ عليها أزهار، ملطخة بصبغة صفراء. وتوجد نباتات على حافة النافذة، تسقيها والدتك كل يوم، لأنك تنسى القيام بذلك.

الشقة مليئة بأغراضك، وأغراض والديك؛ أسطوانات، ومعدات رياضية، وصناديق قديمة مليئة بالكتب والأواني.

حملتَ في يدك شريط قياس الأمتار، ودفترًا صغيرًا، وأخذتَ تقيس مساحة الجدران، وتتحقق من الشقوق التي ظهرت في الحوائط، ومفاتيح الإنارة، وخطوط الكهرباء. أما أنا، فاستلقيتُ على الأرض وأغمضتُ عينيّ، وأخذتُ أتخيل حياتنا هنا. رأيتُ كل تفاصيل البيت الجديدة، وسمعت صوت والديك في المطبخ أسفل منا؛ سمعت خطواتهم وأصواتهم وأوانيهم. قلتُ لك:

– دائمًا سنجد من يهتم بنا!

فسألتني:

– ماذا تقصدين؟

– أقصد أننا لن نبقى وحدنا.. أننا سنجد من يساعدنا في حالات الطوارئ.

– لم أفكر بالأمر من هذا المنظور. لماذا تستلقين على الأرض هكذا؟

– كي أعتاد على بيتنا. إنني أحاول أن أتخيل الأوضاع هنا. أحاول أن أتخيل شكل البيت مع أرضية باركيه جديدة، وحمام أكبر، ومطبخ أكبر. أتخيل أثاثي، ولوحاتي، وكيف سأعيش هنا، معك، ومع طفلنا، ومع والديك. ولكني لا أعتقد أنني سأتحمل ذلك كله!

لم تلتفت إلى كلامي، ولم تسألني عن مقصدي، بل ظللت تقيس مساحة الحائط، وتدوِّن الأرقام بالقلم الرصاص على قطعة من الورق. فما كان مني سوى أن ذهبت إلى الشرفة، ونظرت إلى الحديقة، التي سيلعب فيها طفلنا. قلت لنفسي: "هذا هو المكان الذي سنعيش فيه حياتنا. هنا سنكون سعداء!" ثم وقعت عيناي على والدتك، وهي تجلس تحت شجرة الكريز تقرأ كتابًا. نظرتْ لأعلى، ورأتني، فلوحت لي بيدها، ولوحت لها بيدي!



الفصل الخامس



تحوَّلت التعديلات البسيطة إلى تجديدات كبيرة. وبعدما حصلنا على قرض من البنك، قلتَ لي:

- إنه مبلغ بسيط، سنسدده بمساعدة أبي وأمي في غضون خمسة عشر عامًا، وسيمرون سريعًا.

كنت تغُيِّر قراراتك طوال الوقت. في البداية، قررت أن نُجري بعض التعديلات الطفيفة، ثم جئتني بفكرة تجديد الشرفة، ومن بعدها بناء الجدار الزجاجي، ثم تركيب نظام التدفئة الأرضية، حتى وصلنا إلى مرحلة الإصلاح والترميم الشامل. ضربتَ بخطة التمويل عرض الحائط،

وأخذ مبلغ القرض يزداد يومًا بعد يوم؛ فبدأ بخمسين ألفًا، ثم وصل إلى مائة ألفٍ، ثم مائة وعشرين، حتى بلغ في النهاية مائة وخمسين ألفًا.

قلتَ لي:

– أريد لعائلتنا مساحة أكبر. لن يكفينا سبعون مترًا مربعًا.

فعارضتك قائلة:

– بلى! إنها مساحة كافية لعائلتنا الصغيرة!

– علينا أن نُفكر في إطار أوسع. أرى أن نبني طابقًا خاصًا بنا في السطح.

– ولمَ العجلة؟ ألا يمكننا أن نُرجئ هذه الفكرة؟

– كلا! فرصتنا هي الآن، فأبي وأمي موافقان، ويمكننا أن نتحمل تكاليفه الآن. أعتقد أننا لن نقدر على إجراء أي تعديلات إضافية في المستقبل.

– ماذا لو فقدنا وظائفنا؟ أو تعثَّرت ظروفنا المادية؟

– لا تقلقي، سيساعدنا أبي وأمي، إذا واجهنا أي صعوبات مادية. وإن ضاقت بنا الأوضاع، يمكننا أن نؤجِّر البيت لشخص آخر. صدقيني.. إنه استثمار، سيفيدنا مدى الحياة. فهذا البيت هو الضمان لحياة كريمة، وهو مستقبل أبنائنا. وعندما يرحل والداي، سيصبح المبنى بأسره ملكًا لنا. كل ما أطلبه منك، هو أن توافقيني.

رأيتُ على وجهك ملامح الفرح والحماس الطفولي، ولم أستشِّف أي ملامح توحي بالشك أو عدم الطمأنينة. أما أنا، فاجتاحتني مشاعر الريبة والقلق. أردتُ أن أقول لك: "كلا! إنه ليس بيتي، وليس حلمي، ولم أفكر في

أي من تلك التفاصيل.. فأنت لم تسألني، إن كنتُ أود أن أعيش في بيتك كما هو، أو إن كنت أرغب في إجراء بعض التجديدات، ولم تستشرني بخصوص طابق السطح، ولم تتناقش معي حول تكلفة القرض؛ إن كانت مائة ألفٍ، أو ثلاثمائة.. وكأنني تحصيل حاصل في حياتك، أو جزءٌ من تخطيطاتك".

سألتني:

– لماذا أنتِ صامتة؟ قولي شيئًا!

فأجبتك:

– ماذا تريدني أن أقول بالله عليك؟ هل يعنيك ما أقول؟

فسألتني مستنكرًا:

– لماذا أنتِ خائفة إلى هذا الحد؟ نحن لسنا أول ولا آخر من اقترض من البنوك!

وبعدها، حدَّثتني عن رغبتك في اقتراض مبلغ أكبر، كي يكون بيتنا أكبر، وتفاصيله أفضل، وأكثر تكلفة!

⌘⌘

فاحتْ رائحة البطاطس المشوية في أرجاء البيت؛ إنها الرائحة نفسها التي كانت تتسلل إلى أنفاسي في طفولتي، عندما كان يقف أبي مع أمي في المطبخ، فتتعالى ضحكاتها، بينما يشدو مع أغاني الراديو. لا أرى أمي في خيالي سوى من ظهرها، ولكن أحيانًا تتراءى لي بعض تفاصيل وجهها، فأجدني أستحضر فمها تارة، وعينيها، أو أنفها تارة أخرى.

نظرتُ إلى والدتك من الخلف، حيث انساب شعرها على كتفيها، فبدت لي مثل أمي تمامًا. فهي أيضًا كانت تتجول في المطبخ بتلك الخطوات المتحمسة، وكانت تقطِّع البطاطس بيديها الناعمتين، بينما تصدر منها تلك الضحكات الصاخبة.

وضع والدك يده حول خصرها، ثم قبَّل رقبتها. فشعرتُ في تلك اللحظة، أنني أنظر إلى إحدى صورهما القديمة.

هذه هي عائلتي، وهذا نحن: أنا، وأنت، ووالدك، ووالدتك. صرنا رباعي، نخطط لحياتنا معًا، ونتناول طعامنا معًا، ونقضي عطلات نهاية الأسبوع معًا.

بعدما تناولنا العشاء، ظللتَ جالسًا مع والدك أمام مائدة المطبخ، بينما ساعدتُ والدتك في غسيل الأواني.

كانا على علم بأدق تفاصيل التجديدات، وكل ما يتعلق بالجدران، والأبواب، والأسِرَّة، والمنافذ الكهربائية، ومائدة المطبخ. فقد فكرتم معًا في كافة التفاصيل، حتى صار لديكم تصورٌ كاملٌ للشكل الذي سيبدو عليه البيت. فهو حلمك الصغير، الذي طالما حلمتَ به، وها أنت ذا تعمل على تحقيقه. أما والداك، فبعد أن فاتتهما فرصة تجديد بيتهما، قررا أن يُكرِّسا جهودهما لبيتنا نحن.

قال والدك:

– لا يمكننا إجراء أي تجديدات في بيتنا الآن، بعد أن شاب شعرنا. فالأمر مُجهد للغاية، ولا يقدر عليه سوى الشباب.

أما أنا، فكلما أبديتُ رأيي في شيء ما، أجدهم يقولون: "بل الأفضل هو كذا"، أو "كلّا، هذا غير ممكن"، أو "لم يعُد أحد يفعل ذلك يا "آندي"". وإذا

سألتُهم: "ما رأيكم في كذا؟"، يقول والدك: "كلا، هذا لا يتناسب مع البيت!"، وإذا سألتُك: "أيمكننا أن نفعل كذا؟"، تقول لي: "كلا، فأنا لديّ تصورٌ آخر"، وإن قلتُ: "أتمنى أن نفعل كذا"، تقول لي: "ولكننا اشترينا كذا!".

اخترتَ أنتَ المهندس المعماري، لأنك تعمل في أحد المكاتب المعمارية. كما اخترتَ شركة البناء، لأنك اتفقتَ معهم على عروض خاصة. فأنتَ صاحب التخصص، ووالدك صاحب الخبرة. لذا، تتبادلان معًا المحادثات والمعلومات، وتتشاركان في التخطيط، وتتفقان على المواعيد، دون أن تصحباني معكما. فأنت صاحب الخبرة، ولكن ما علاقتي أنا بالبناء والأثاث؟ من أنا لأقرر أمرًا يتعلق بالمباني والبيوت؟ كيف لي أن أدلو بدلوي في هذا الشأن؟ فأنت أعلم به مني، وأنت الأكثر دراية!

صرنا منشغلين بعدة أمور، ولم نعد نتحدث عن فحوصات "السونار"، بل عن أرضيات "الباركيه"، وعوازل الصوت، والستائر ذات الشفرات، لدرجة أنني صرت خبيرة في أنواعهم؛ توجد أرضيات "باركيه" مصنوعة من خشب البلوط، وأخرى بها أشكال متعرجة. كما توجد ستائر من شفرات مصنوعة من الخشب، وأخرى من الألومنيوم، وأخرى قابلة للطي.

كانت والدتك تقضي عدة ساعات في المطبخ، حيث تفتح أمامها كتالوجات الأثاث على المائدة، وتضع علامات على الأغراض التي تتناسب مع بيتنا. صرنا جميعًا مشغولين ومتوترين، فقد كان علينا أن نُنهي التجديدات في أقرب وقت، كي يتسنى لنا الاستقرار في البيت قبل الولادة.

ولكني كنت أشعر أنني كمٌ مهمل، وكنتُ أتأكد يومًا بعد يوم، من أنك فكرتَ في تلك التفاصيل كلها منذ فترة طويلة، وأنك تحدثتَ بالفعل مع

المهندس المعماري منذ عدة أشهر، وتناقشتَ مع شركة البناء حول كافة التفاصيل، ووضعتَ معهم خطة مبدئية، وأخطروك بتقديرات التكلفة، قبل أن تتناقش معي من الأساس. كما تبيَّن لي أيضًا أنك ذهبتَ بالفعل إلى البنك كي تطلب القرض، ولكنهم لا يُقدموا تلك المبالغ المرتفعة سوى لشخصين معًا.. هكذا أنت دائمًا، تسبقني بخطوة.

صرتُ أذهب إلى الفحوصات وحدي، بينما كنتَ تقضي وقتك إما مع والديك، أو مع أصدقائك، الذين يُتحفونك بنصائحهم على مدار الساعة، وفي المقابل، تدفع لهم أنت ثمن صناديق البيرة التي يستهلكونها. لم أعد أراك سوى في فترة النوم، حيث تعود إليّ متعبًا، وتغفو سريعًا.

صار البيت هو محور حياتنا، وصرتَ مهووسًا به. قلتَ لي:

- رأسي سينفجر، فالأمور كلها في حالة من الفوضى، ولاشيء يسير وفقًا للخطة.

فقلتُ لك:

- لا يجب أن تكون الأمور مثالية.

- أنا أريد الأفضل لنا، وسرعان ما ستمضي هذه الفترة العصيبة.

- هل ستختار والدتك الأثاث؟

- ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟ بالطبع لا!

- لأنها تجلس في المطبخ طوال اليوم، وتضع علامات في كتالوجات الأثاث.

- دعيها تُسلي وقتها، فهي تحتاج إلى ما يُشغلها، كما أنها تريد أن تشاركنا فرحتنا. لماذا لا تذهبان معًا إلى محلات الأثاث؟

- ما هذا الهراء يا "جورج"؟ من سيعيش في هذا البيت، نحن أم هي؟

- إن نيتها طيبة.

⌘⌘

لقد ألزمتَني معك بهذا القرض. وها نحن نشيد بيتنا، وننتظر مولودنا، كي نعيش تلك الحياة التي اخترتها أنت.. أدركتُ أننا سنظل هنا إلى الأبد، وأن أحلامي لن تتحقق أبدًا؛ فلن يتسنى لي أن أعيش في المدينة، ولا في مدريد، ولا في بيت يطل على البحر.. لن أقطن سوى هذا البيت، على حافة الغابة، حيث يتداول سكان القرية أخبارنا، ويُراقبوننا، ويُصدرون أحكامهم على تصرفاتنا وممتلكاتنا. وسيتعيَّن علينا أن نندمج مع هذا المجتمع، ونخضع لقوانينه.

لدينا منزل، وسيارتان، وطفل.

⌘⌘

مضت الأيام؛ تارة مضيئة، وتارة مظلمة.. تارة مشرقة، وتارة ممطرة. تطل غرفة معيشتنا على الوادي والجبال، حيث يغطي الضباب الحقول في الصباح الباكر، ثم يتبدد مع أشعة الشمس رويدًا رويدًا. وقفتُ أتأمل تلك الطبيعة الخلابة، وأتخيل ضحكات طفلنا، وأترقب حياتنا معًا. شعرت أنها ستغمرني بالدفء والألوان.

ولكن في بعض الأيام، يجتاحني شعور آخر. فكلما حدَّثتني عن التصاريح وخطط البناء، أتخيل أنني أفتح الباب، وأنزل السلم، وأمشي في الشارع، لأنساق مع خطواتي إلى أقصى مدى تحملني إليه قدمي. فلا أشعر بأي شيء، إلا بخطواتي على الأسفلت، فأبتعد أكثر مع كل خطوة، ولا يمكن لأي شخص أن يردعني. ولكنك سرعان ما تعيدني إلى رشدي، قبل أن أهِّم بالرحيل، وتقول لي معاتبًا:

– كالعادة لا تنصتين إليّ. هل تسمعين ما أقول؟

– بالطبع سمعتك!

– إذًا، كرري كلامي.. ماذا قلتُ؟ إنكِ لا تكترثين حتى ببيتنا!

⌘⌘

ذات مرة، سمعتُ دقاتٍ صغيرة داخل بطني، وكأن هناك فراشة تفتح جناحيها وتصطدم بالجدار. وعندما وضعتُ يدي على بطني، شعرتُ بشيء بالداخل؛ حشرة صغيرة، لديها شعر زغب، تتلألأ أجنحتها باللون الأزرق والأرجواني، وتتخللها نقوش سوداء. إنها تمارس أولى محاولاتها للطيران. وفي غضون بضعة أشهر، ستطير خارج بطني. لعلها ستصحبني معها، ولعلني سأتحول أنا أيضًا إلى فراشة، وأطير معها بعيدًا.

⌘⌘

لم تعد حفلات أعياد الميلاد كما كانت في الأيام الخوالي، فقد صارت تنعقد في فترة ما بعد الظهيرة، حيث يجلس معظم الضيوف على الأرض في غرفة المعيشة، وسط ألعاب الأطفال. وكلما ذهبتُ إلى حفلة عيد ميلاد

إحدى صديقاتي، وجدتُ الأطفال لا يقلون عددًا عن الكبار، وتتراوح أعمارهم بين خمسة أشهر وثلاث سنوات. لا يجلس الآباء والأمهات في راحة أبدًا، فهم يركضون خلف الأطفال، ويفضُّون عراكهم طوال الوقت.

جلسنا مع "أليكس" نحتفل بعيد ميلادها، في يدك كأس الشامبانيا، وفي يدي كوب من عصير البرتقال. سألتْنا:

– متى ستنتقلان إلى البيت الجديد؟

فأجبتَها:

– ستنتهي التجديدات في غضون شهرين، أو ثلاثة على الأكثر.

فاستطردتُ قائلة:

– فكَّر "جورج" في كافة التفاصيل.. سنقوم بتركيب جدار زجاجي، يطل على الوادي. فالمكان هناك يخطف العقل، حيث تقع الغابة على بعد بضعة أمتار من بيتنا. ولدينا في حديقتنا شجرة كريز، يصل ارتفاعها إلى سطح المبنى.

فقالت "أليكس":

– سأحسدكما على هذا البيت الجميل، فبيتي يطل على الشارع العمومي والمباني المجاورة. كما أنكما ستكتشفان مع مرور الأيام مدى أهمية وجود الأجداد معكما في المبنى. فأنا و"باول" ليس لدينا من يساعدنا في العناية بأبنائنا. فأبي وأمي يعيشان على بعد ثلاث ساعات طيران، بعد أن قررا قضاء ما تبقى من العمر في اليونان. أحيانًا يقضي والدا "باول" إجازة

نهاية الأسبوع معنا، وأحيانًا نذهب نحن إليهما، ولكن هذا لا يكفي، فالاعتناء بطفلين أمرٌ في غاية الصعوبة.

قال "باول":

– لا تقلقا من كلامها، فالأمر يتطلب نوعًا من التنظيم. كما أن ظروفكما مختلفة، فأنتما ستعيشان بالقرب من أربعة أجداد.

صححته قائلة:

– بل اثنين فقط!

فسألني مستفسرًا:

– لماذا؟

فأجبته:

– تركتنا أمي وأنا في العاشرة. أما أبي، فلم أره منذ عدة سنوات، على الرغم من أنه يسكن بجواري.

فقال "باول":

– آسف! لم أكن أعرف ذلك. ألم تقابلي والدتك منذ ذلك الحين؟

فأجبته:

– كلا!

فسألني مجددًا:

– هل حاولتِ العثور عليها؟

فقاطعته "أليكس" قائلة:

– كفى يا "باول"! هذا ليس من شأنك.

فقلتُ لهما:

– لا بأس.. لماذا يجب أن أبحث عنها؟ ليس لديّ ما أقوله لها. فقد اتخذتْ قرارها، وأنا قبلتُ به!

فسألني مجددًا:

– وماذا عن أبيك؟ هل يعلم أنك حامل؟

فقاطعته "أليكس" قائلة:

– كفى يا "باول"!

بعدها بفترة، انطفأت الأنوار، وحمل "باول" مع ابنته الصغيرة تورتة، عليها خمس وثلاثون شمعة، ثم غنينا معًا لـ"أليكس" أغنية عيد الميلاد. أهدتها ابنتها لوحة صغيرة، مرسومٌ عليها شمس بنفسجية، وبيت صغير، يقف أمامه أب وأم مع طفليهما، بينما أهداها "باول" أقراطًا وقلادة مصنوعة يدويًا. وبعد ذلك، قطَّعت "أليكس" التورتة قطعًا صغيرة متساوية تمامًا.

كانت الأجواء حقًا مثالية. وبينما تناولنا التورتة، تحدث الضيوف عن رياض الأطفال، وعربات الأطفال، وحاملات الأطفال. وجدتني أُنصت إليهم بكل اهتمام، بل وأطرح عليهم عدة أسئلة، ففي غضون بضعة أشهر، سأشاركهم تلك التجارب.

قالت إحدى صديقات "أليكس":

- اتصل بي مديري، كي يسألني عن موعد عودتي إلى العمل، على الرغم من أن طفلي لا يزال عمره شهرين فقط. يريدونني أن أتَّخذ قرارات مصيرية، دون أن يُتيحوا لي فرصة للتفكير. كيف لي أن أعرف إلى متى سأبقى في المنزل؟ فزوجي يعمل طوال اليوم، ولا يعود إلى المنزل حتى المساء. لا يمكنني أبدًا أن أعود إلى العمل الآن، وأترك طفلي في هذا العمر.

فقالت لها "أليكس":

- وما إن يصبح الوقت مناسبًا للعودة إلى العمل، ستجدين نفسك تفكرين في المولود الثاني.

فقالت صديقتها:

- يا إلهي! طفل واحد يرهقني بما فيه الكفاية. أنا لا أنام أكثر من ساعتين متواصلتين. كيف سأعيد الكرة؟

فقالت شقيقة "أليكس":

- إنني بالفعل محظوظة بالعمل في القطاع العام. فهم يتيحون لنا إجازة لرعاية الأبناء، تصل إلى خمس سنوات. وبمجرد أن يبلغ "أوسكار" عامه الأول، أريد أن أحمَل مرة أخرى، فالعمل بدوام جزئي لا يستحق العناء. ومن الأفضل أن أُسرع في إنجاب طفلي الثاني.

سألتها "أليكس":

- بهذه السرعة؟ ألا ترغبين في التعافي من الولادة الأولى؟

فأجابتها أختها:

– أعتقد أنني تجاوزت تلك المرحلة.

فسألتها "أليكس":

– ألا تخشين أن يتكرر ما حدث لكِ في الولادة الأولى؟

فسألتَها:

– ماذا حدث؟

فأجابتْكَ:

– أُصبت بارتفاع حاد في ضغط الدم، أدى إلى إصابتي بمضاعفات يُطلق عليها "تسمم الحمل"، لدرجة أن السائل الأمنيوسي تلطَّخ باللون الأخضر. فخضعتُ لعملية قيصرية طارئة، وأنجبتُ طفلي في الشهر السابع. كانت حياتنا أنا والمولود على المحَّك، ولكني آمل ألا يتكرر ذلك في المرة القادمة. لا تقلقي يا "آندي"، إنها حالة نادرة الحدوث.

حاول "باول" أن يُغيِّر الموضوع، فقال ضاحكًا:

– خمس وثلاثون شمعة.. يا له من رقم كبير، لا تحتمله التورتة!

فقالت أخت "أليكس":

– لم يكن سهلًا عليّ أن أتم عامي الخامس والثلاثين. كان الأمر أصعب من بلوغ الثلاثين.

فقالت "أليكس":

– نعم أتذكر ذلك جيدًا. اتصلتِ بي، وأجهشتِ بالبكاء. ولكني لست مثلك، فأنا ليست لدي أي مشكلة مع عمري. أشعر أنني حققت كل أهدافي؛ فقد تزوجت، واقتنيتُ بيتًا خاصًا، ورُزقت بطفلين جميلين. هل شاهدتم صور زفافنا؟

ثم أحضرتْ لنا ألبوم صور أبيض، وأخذنا نتصفحه معًا. شاهدنا صورة لها مع "باول"، يُقبِّلان بعضهما داخل عربة الزفاف، وصورة أخرى عند مدخل الكنيسة، حيث يتبادلان نظرات الحب، وأخرى لها وهي تغمض عينيها، وتضحك، بينما ترمي باقة الورد، ثم صورة لها وهي ترقص مع عريسها. وبعد أن أنهينا صور الزفاف، ظهرت مجموعة من الصور العائلية، فشاهدنا صورة ليديّ "أليكس" و"باول" تشكلان قلبًا فوق بطن "أليكس" الحامل، ثم صورة ليد صغيرة تُمسك بإصبع "أليكس"، بينما يُضيء خاتم الزواج في يدها باللون الذهبي، ثم صورة لطفلة صغيرة مغمضة العينين، ترقد عارية داخل سلة صغيرة، وحول رأسها شريط به زهرة وردية كبيرة.

قالت "أليكس":

– هذه أجمل صورة في الألبوم. تعالوا! أريد أن أريكم شيئًا!

تبعناها إلى غرفة النوم، لنجد تلك الصورة فوق سريرها بحجم أكبر؛ ظهرت الطفلة بالأسود والأبيض، بينما توهَّجت الزهرة باللون الوردي. وكان مكتوب أسفل الصورة: "مع العائلة تبدأ الحياة، ولا ينتهي الحب أبدًا".

⌘⌘

عندما عدنا إلى البيت، كان عليّ أن أتنفس. يتظاهر الجميع وكأن أجمل تجارب الحياة هي الحمل، وإنجاب الأطفال، وبناء البيوت. وها أنا قد صرت على مشارف تلك الحياة، فسيكون لي بيتي، وطفلي، وزوجي الذي يعشقني. وكأن العائلة هي ما سيُكملني، وكأنني سأعيش داخل فقاعة مثالية لا تنفجر أبدًا.

سألتَني:

– هل تشعرين بالغثيان؟

فأجبتُك:

– كلا، إنني فقط متعبة.

تغمرك العائلة بالحب والأمان. فهي كمرساة السفينة، التي تعيدك إلى مكانك، كلما انسقت بعيدًا.

مددتَ يدك إليّ قائلًا:

– هيا بنا ننام!

أمسكت بها، فوجدتها باردة وخشنة.

⌘⌘

كنت تبيت في شقتي إلى أن ننتهي من تجديدات بيتنا. امتلأت خزانتي بأكوام من ملابسك، فقد تخلصتُ من ملابسي القديمة، ودفستُ بعض ملابسي في عدة صناديق، حتى أترك لك مساحة لتخزين ملابسك. كما تبعثرت أحذيتك في مدخل البيت، وتناثرت معدات اللياقة البدنية الخاصة

بك في غرفة المعيشة، وامتلأت رفوفي بأسطواناتك، ووضعتَ حاسبك الآلي على مائدة الطعام. وهكذا، تكدَّست شقتي بعدة صناديق تحوي أغراضك المهمة، بينما تركتَ بقية أغراضك عند والديك.

كنا نبحث عن مُستأجِر لشقتي، وكتبنا في الإعلان: "شقة 50 مترًا، مقابل 400 يورو شهريًا. جاهزة للسكن بدءًا من شهر أكتوبر الجاري".

في غضون ثلاثة أشهر سأترك بيتي، وسأغلق بابه ورائي، كي أبدأ صفحة جديدة من حياتي. أما عن الأثاث، فقمنا بفرزه، كي نتخلص من بعضه، ونبيع بعضه الآخر. أردتُ أن أحتفظ ببعض القطع، ولكنك كنت تُدقق في كل قطعة، وتتفحصها جيدًا، قبل أن تُصدر حكمك عليها. قلتَ لي:

– لن يتماشى أثاثك مع بيتنا الجديد، إما بسبب لونه، أو لأنه يبدو رخيصًا. أرى أن نتخلص من تلك المفروشات القديمة، فنحن بصدد مرحلة جديدة من حياتنا.

⌘⌘

انتفخ بطني، لدرجة أنني لم أستطع أن أنام، وظللت مستيقظة على السرير. شعرتُ أن بطني يحوي بحرًا صغيرًا، يسبح فيه طفلي ذهابًا وإيابًا. كان يصطدم بجدار البطن، ثم يتوقف، لدرجة أنني لاحظت انتفاخًا في بطني، يتحرك من موضع إلى آخر، ثم يختفي فجأة.

نظرتُ إليك وأنت نائم بجواري. ثم دققتُ على بطني، فتحرك طفلنا مرة أخرى، وحينها، أمسكتُ بيدك، وقلتُ لك هامسة:

– استيقظ يا "جورج"!

ثم وضعتُ يدك على بطني، وقلتُ لك:

– إنه مثل الشبح!

فقلت لي:

– أو سمكة قرش صغيرة.

وبعدها، ضممتني إليك، فوضعتُ كل جزء من جسدي، حيث ينبغي أن يكون: رأسي على صدرك، وساقي اليمنى على ساقك اليسرى، وصدري على بطنك، وكأننا كيانٌ واحدٌ. قلتَ لي:

– نحن ننتمي معًا. أترين؟ أترين كيف يتلاءم رأسك مع صدري؟

فقلت لك:

– أي رأس آخر سيتلاءم مع صدرك أيضًا!

ثم عضضتُ بطنك برفق.

⌘⌘

رأيتُ أمي في منامي. كنا سمكتين تسبحان معًا في المحيط، بينما سبقتنا بقية الأسماك، فرأيناهم أمامنا عندما تسلل إليهم الضوء عبر الماء. وفجأة تباطأت حركتي، وكأن هناك ما يسحبني إلى الخلف. ولكن أمي استمرت في السباحة، في حين تلألأ ذيلها بدرجات البرتقالي، والفيروزي، والأحمر، والأصفر. انبهرتُ بجمال تلك الألوان، فنظرتُ إلى ذيلي، ولكني وجدته رمادي اللون، ومشوه، ومتآكل من جانبه الأيسر. ناديتُ أمي قائلة:

- ماما، ماما، انتظريني!

فاستدارت وابتسمت لي قائلة:

- هيا تعالي!

حاولتُ أن أستجمع قوتي كي أُسرع إليها. ولكني لم أتمكن من اللحاق بها، فهناك حبل ظل يسحبني بقوة إلى الخلف، ثم التف حول رقبتي وخنقني. فاستنجدتُ بأمي قائلة:

- إنني أختنق يا ماما!

ولكني لم أعد أرى فقاعات ذيلها في المحيط، ولم أرَ سوى الضوء الذي امتد عبر الماء. وفجأة استعدتُ ذراعيّ مرة أخرى، فأمسكتُ برقبتي، وشعرتُ بشيء لزج ملفوف حولها، وعندما أمسكته، اكتشفتُ أنه الحبل السري.

⌘⌘

أقمنا حفلة وداع في المكتب لزميلتينا "ساندرا" و"كارمن"، قبل انتقالهما إلى فرعنا الجديد في "هامبورج". شربنا "الشامبانيا"، وتناولنا ساندويتشات صغيرة. كما شاهدنا صور الفرع الجديد، الذي يقع في حي راق بالقرب من الميناء. صارت "ساندرا" مديرة الفرع، و"كارمن" النائبة، كلتاهما عازبتان، وليس لديهما أطفال.

شعرتُ بالسكر بعد رشفتين من "الشامبانيا"، واختل توازني بعض الشيء. ولكني ظللت مبتسمة، بينما حكتا لنا عن العملاء الجدد، والفرص الجديدة، والاقتصاد الإبداعي، وتوسيع نطاق الخدمات. قالت "كارمن":

- فلنشرب كأسًا في صحة هذا كله!

فقلتُ:

- في صحة بدايتكما الجديدة!

وشربتُ كأسي دفعة واحدة، بينما ردد بقية الزملاء من بعدي:

- في صحة بدايتكما الجديدة!

لاحظتُ أنهم رمقوني بنظرات متعجِبة. سألتني "ساندرا":

- ألا تريدين أن تخبرينا شيئًا يا "آندي"؟

شرقتُ بالطعام، وبدأتُ في السعال، ثم شعرتُ بالحرارة تتصاعد إلى رأسي. سألتها:

- ماذا تقصدين؟

فوجدتهم جميعًا يحدقون في بطني.

⌘⌘

ظللت أبكي طوال طريق العودة. وعندما وصلتُ إلى البيت، وجدته يفوح برائحة اللحم والطماطم، ويدوي بأغاني الراديو. كنتَ قد أعددتَ مائدة الطعام بعناية، حيث طويتَ المناديل على شكل أهرامات صغيرة، ووضعت باقة من الزهور البيضاء في منتصف المائدة، وسكبت لنا الماء في كؤوس النبيذ.

اقتربتَ مني وقبلت جبيني، وساعدتني في خلع معطفي، ثم سألتني:

- لماذا تبكين؟

- لقد فكرتَ في كافة التفاصيل!

- ولهذا تبكين؟

- جميع زملائي عرفوا بخبر حملي!

فضممتني إليك قائلًا:

- هذا جيد يا "آندي"، لا داعي للبكاء.. لديّ مفاجأة، ولكني سأريها لكِ بعد العشاء.

وبينما وضعتَ الصحون على المائدة، جلستُ أشرب كأس المياه، وشعرت أنني جاحدة. فها أنت ذا، تفعل كل ما في وسعك كي تراني سعيدة، وتريد أن تكوِّن معي أسرة سعيدة، وحياة مشتركة. كما أنك تبحث عن السعادة في لحظاتنا معًا؛ عندما تتناول معي عشاءً هادئًا على ضوء الشموع، أو عندما تنام بجواري. إنك تبني لنا عشًا، كي نسكنه معًا، ونكبر فيه معًا.

قلتَ لي:

- اجلسي على الأريكة وأغمضي عينيكِ!

ثم أطفأتَ النور، وطلبتَ مني أن أفتح عينيّ. لأجدك تعرض بالكشاف الضوئي فيديو على الحائط، تحت عنوان: "بيتنا".

سألتك:

- ما هذا؟

فأجبتني:

– سترين الآن!

ظهرتْ صور ثلاثية الأبعاد لمبنى والديك، ثم ظهرتْ حديقة البيت، حيث تزدهر أشجار الفاكهة، ويركب طفل صغير على الأرجوحة، ويرقد كلب صغير على العشب.

سألتك:

– أتريد كلبًا أيضًا؟

– ولمَ لا؟ ولكن هذا ليس موضوعنا الآن. شاهدي الفيديو!

ظهرتْ صورة مجسمة لي وأنا ممسكة بفرشاتي أمام حامل صور الرسم. كنتُ أقف في الشرفة، أسفل مظلة بيضاء كبيرة. ثم ظهرتْ سلالم خشبية حلزونية تؤدي إلى طابق السطح، حيث توجد واجهة زجاجية. أما غرفة الأطفال، فبها سرير بطابقين ومزلقة صغيرة. وفي حجرة المعيشة، شجرة ليمون صغيرة، وبجوارها أرجوحة مُعلقة كبيرة، مصنوعة من القش. أما المطبخ، فبدا واسعًا، وطغى عليه اللون الفيروزي. ثم حان وقت المفاجأة؛ حيث ظهرت ردهة البيت، مطلية بألوان زاهية، ومكتوبٌ فوقها: "جدران الفن".

سألتك:

– ما هذه الجدران؟

فأجبتني:

– إنها ملكك.. رهن إبداعك!

- ألهذا السبب أخفيت عني تفاصيل البيت؟

- نعم!

ثم قبلتني في جبيني قائلًا:

- سيكون بيتنا مثاليًا. سنزيل الأرضيات الخشبية، ونبيع بعض قطع الأثاث، ونتخلص من البقية، كما سنغير النوافذ والأبواب، ونهدم بعض الجدران، ونعيد طلاء البيت.. لن يتبقى أي أثر من الشقة القديمة.

⌘⌘

صار طفلي قادرًا على السمع، وصار عدد الخلايا العصبية في جسده يتراوح بين اثني عشر وأربعة عشر مليارًا. إنه يسمع دقات قلبي، وصوت اندفاع الدم في جسدي. كما ينتبه إلى أصوات ماكينة الثقب، والمطرقة، وهدم الجدران.

أمسكتُ بالمطرقة، كانت ثقيلة عليّ، ولكني أخذتُ أدق بها على الحائط مرة بعد مرة!



الفصل السادس



في الحُلم، وجدت أشلاء أمي مبعثرة في أدراج الحمام. ثم خرجتْ ابنتي من غرفتها، استعدادًا للذهاب إلى المدرسة. حاولتُ أن أُخفي عنها مقتل جدتها، ولكنها ظلَّتْ تسألني عنها، وأصرَّتْ أن تعرف ما يوجد داخل الأدراج. فجأة، وجدتُ نفسي في الردهة، أقف أمام القاتل. ثم وجدتُ نفسي مستلقية بجواره على سرير أمي، ولكنه قال لي بحنان وعذوبة:

– لن أقتلكم.. فأنا لست بقاتل!

ثم وضع يده على ذراعي، فشعرتُ بشيء من الألفة. وهكذا ظللتُ بجوار قاتل أمي على السرير، وتركتُ ابنتي تستعد وحدها للذهاب إلى المدرسة. ولكني حاولتُ أن أسترق السمع داخل الحمام، آملةً ألا تُفتح الأدراج.

⌘⌘

تتحدث والدتك بصوت عالٍ، وتضحك بصخب، وكلما ذهبتْ معي إلى متاجر الأثاث، تمشي بسرعة، وتسبقني، فأسير خلفها، وتهِّف عليّ رائحة عطرها. ولكنها دائمًا ما تختفي من مرأى بصري، فهي تعرف مُسبقًا أماكن قطع الأثاث التي تود أن تراها، فتشُّق طريقها بخطى ثابتة نحو الهدف.

صار يوم السبت هو يوم الحماة والكِّنة، ولكني أحيانًا كنت أشعر أنه يوم الأم وابنتها، أو يوم صديقتين مقربتين. مرَّات أكون ابنتها التي لم تُنجبها، ومرَّات أكون تلك المرأة التي تنافسها في حب ابنها، فأجدها تعارضني وتتشاجر معي حول قطع الأثاث، وكأنها رموزٌ للسلطة، تُثبت بها سيادتها.

كانت هي التي تُجري الحوارات مع الباعة، بينما أجلس بجوارها حاملة هاتفي في صمت، وكأنني طفلة صغيرة. قلتُ لها:

– كلا، لا أريد بأي حال من الأحوال أن أشتري خزانة بيضاء!

فقالت:

– لن نخسر شيئًا إذا ألقينا عليها نظرة. فهذا ما يريده "جورج"!

أظهرتُ للبائعة، أن الخزانة لا تُعجبني، ولكنها أخذت تطرح عليها عدة أسئلة، توحي بنيتنا للشراء: "ما هي مدة التسليم؟"، "هل يمكننا أن

نغيِّر حجمها؟"، "هل توجد منها ألوان أخرى؟"، ثم أخذتْ تُدوِّن بعض الملاحظات، وقاست حجمها بالشريط. لم تكترث لرأيي على الإطلاق، وأخذت تتحفني بعبارات من قبيل: "إن هذا الموديل رائج الآن!".

كرهتك بسببها، فقد تركتني معها وحدي، لتُصدر الأوامر للعمال في موقع البناء! أتذكر جيدًا عندما قلتَ لي: "سنعيش حياتنا، وسيعيشان حياتهما".. يا لها من عبارة خادعة!

تجوَّلتُ في الممرات، وألقيتُ نظرة على المطابخ، وحجرات الأطفال، والمعيشة، والنوم. كانت الموائد مزيَّنة بكؤوس النبيذ، والمناديل الملونة، كما كان يوجد زرعٌ صناعيٌ، وصحون فواكه فوق البوفيهات، وكتبٌ وهمية فوق الرفوف. فبدت تلك الغرف وكأنها حقيقية، يسهُل أن نتخيلها في بيوتنا.

وجدتُ أرائك مختلفة الأحجام والأشكال، ولكنها بدت لي متشابهة، على الرغم من اختلاف ألوانها بين الأسود، والرمادي، والأبيض، والبني. كما أن بعضها جاء معه كرسي مطابق. ولكن لم يلفت انتباهي سوى واحدة برتقالية، كانت ليِّنة لدرجة أنني غرقت داخلها حالما جلست عليها، وسرعان ما احتوتني وسائدها. قلت لنفسي: "كم أود أن أظل جالسة هنا إلى الأبد!"

وبينما استكملتْ والدتك محادثاتها مع الباعة في قسم آخر، شعرتُ بحركات غريبة في بطني.. نوع من القفزات الإيقاعية.. وكأن هناك حشرة صغيرة تعيش بداخلي.. لعلها ليست فراشة.. بل جندب.. أخضر مثل أوراق الشجر.. أو ربما أحمر داكن، مموه داخل الرحم!

وضعتُ يدي على بطني، ثم دققت عليه برفق. فتحرك طفلي ببطء، ثم ازدادت سرعته. ظللتُ أراقب السيقان التي مرت أمامي، وهي تسير ببطء، ثم تتوقف للحظات، قبل أن تستكمل سيرها. تسللت الضحكات إلى أذنيّ، وامتزجت الأصوات الصاخبة مع الخافتة. سمعت أحدهم يقول: "كم مرة يجب عليّ أن أخبركِ أنه ليس لدينا مكانٌ كافٍ لتلك الأريكة؟"

وبعدها، رأيتُ ساقيَ والدتك تقترب نحوي. كانت ترتدي حذاءً شتويًا أسود، يصل إلى ركبتيها. ثم سمعتها تناديني قائلة:

– ها أنتِ ذا!

وبعدها، جلستْ بجواري على الأريكة، وقالت:

– لقد بحثتُ عنك في كل مكان! يستغرق التسليم هنا أسبوعًا واحدًا فقط.

فقلت لها:

– سأشتري هذه الأريكة!

فقالت لي:

– لكننا نريد أن...

فقاطعتها قائلة:

– أنتِ تريدين! ولكنه بيتي أنا و"جورج"!

ثم أشرتُ إلى البائع.

⌘⌘

في الظهيرة، جلسنا في أحد مطاعم المتجر، كي نستعيد نشاطنا. كنا نحصل على خصومات، أو مشروبات مجانية، أو هدايا رمزية، عندما نتناول الغداء في مطاعم متاجر الأثاث، بفضل كوبونات الخصم التي حرصت والدتك على تجميعها من الكتالوجات.

فتحنا الكتالوجات أمامنا على المائدة، كي نختار المصابيح، والخزائن، وأثاث الحديقة. أرسلنا لك عدة صور، كي تشاركنا القرار. فقد كانت لك متطلبات محددة، لا تسمح بالحياد عنها. وفي النهاية، اخترنا مصباحًا يمزج بين الأبيض والأسود، وأثاثًا للتراس مصنوعًا من الخيزران، وخزانة للكتب مصنوعة من خشب البلوط. واتفقنا مع أحد النجارين على موديلات المطبخ وحجرة النوم.

قلتُ لحماتي:

- بعدما صرتُ على مشارف إجازة الوضع، صرت أتوق إلى الذهاب إلى المكتب كل يوم.

فقالت لي:

- إنك لا ُتدركين مدى صعوبة الأمر، فتربية الأطفال مهمة حياتية.

لوحتُ بيدي قائلة:

- ولكني...

- لا يوجد مجال لـ"لكن". إنك حقًا لا تُدركين حجم المسؤولية التي ستقع على عاتقك! لقد مكثتُ في البيت سبع سنوات، ثم عملت بعد ذلك بدوام جزئي، حتى تخطى أبنائي سن السادسة عشر.

– ربما هكذا كان الحال في الماضي، ولكن الزمن قد تغير.

– من الذي سيُعِّد لهم الفطور، إذا ذهبتِ إلى العمل؟ ومن سيأخذهم إلى الروضة، إذا ذهبتِ إلى العمل؟ ومن سيطبخ لهم الغداء، إذا ذهبتِ إلى العمل؟ ومن سيعتني بهم عندما يمرضون؟ توجد مربيات أطفال، وهناك عديدٌ من مراكز الرعاية النهارية، ولكن أترغبين أن يشْهَدوا هم خطوات طفلك الأولى؟ اعقلي الأمور يا "آندي". عليكِ أن تظلي في البيت بضع سنوات. سيكفيكما راتب "جورج". استمتعي بتلك الفترة. لماذا تنجبين طفلًا إن كنت ترغبين في العودة إلى العمل؟ صدقيني، ليس هناك ما هو أجمل من سنوات الطفل الأولى، كما أنها تمضي سريعًا.

– ولكني حقًا لا أريد أن أترك وظيفتي!

– تريَّثي وخذي وقتكِ! فالصورة لا تزال غير واضحة لكِ بعد. نحن لا نُنجب الأبناء، كي يعتني بهم غيرنا.

– ولكن "جورج" سيساعدني!

– لا يمكن لـ "جورج" أن يحِّل محَّل الأم أبدًا. كما أنه لن يتمكن من مغادرة المكتب في أي وقت. لا يجوز أن نُؤْثِر أنفسنا على مصلحة أبنائنا.

– أنا لا أقول إنني سأتخلى عن طفلي. كل ما أريد هو أن أستمر في العمل، ما دام الأمر يسمح بذلك.

– ستُغيرين رأيك بعد بضعة أشهر.

- عندما ضمني "جورج" إليه، بعدما أخبرته أنني حاملٌ، شعرتُ أنها أجمل لحظة في حياتي، وأنني لا أرغب سوى أن أصبح أمًا، وأن أحمل طفلي بين ذراعيّ.

- هكذا ستشعرين حالما تحملين طفلك بين ذراعيْك، لا يمكن لأي أم أن تُهمل طفلها أبدًا!

- معكِ حق يا "إريكا"!

- تتمنى عديدٌ من الأمهات قضاء وقت أطول مع أبنائهن، ولكن ظروفهن لا تسمح بذلك.

- نعم، أعلم ذلك.. هيا بنا نطلب الحساب.

⌘⌘

وقفتُ أمام المرآة، أراقب حركة فمي عندما أقول كلمة: "نعم". لاحظت أنني دائمًا ما أنطقها بالنغمة نفسها، وهو ما أثار اندهاشي، فوَقْعها على مسامعي لا يتغير أبدًا. فـ"نعم يا "جورج"، افعل ما يحلو لك"، هي ذاتها: "نعم يا "إريكا"، عليّ أن أُقلل من طعامي"، وهي ذاتها: "نعم يا "إريكا"، لن نشتري تلك القطعة"، وهي ذاتها: "نعم، نود الحضور لتناول العشاء"، وهي ذاتها: "نعم، إنني سعيدة بالمهد الذي اختاره جورج"، وهي ذاتها: "نعم، لا بد ألا أرهق نفسي في العمل"، وهي ذاتها: "نعم، أنا أيضًا أحبك". فمع كل "نعم"، أغوص في العبث أكثر وأكثر.

وقفتُ تحت مياه الدوش. كانت ساخنة لدرجة أنها أحرقت جسدي، ولكني ظللت أصرخ: "نعم، نعم، نعم، نعم!"

⌘⌘

بمناسبة عيد الميلاد، أهدانا والداك إقامة لمدة يومين في إحدى المنتجعات على الجبل. وقالوا لنا:

- إنكم بحاجة إلى وقتٍ لنفسكما. حاولا أن تستمتعا بتلك الفترة، لأنها سرعان ما ستمضي مع وصول المولود.

استلقينا على مقاعد الاستجمام، أنت على ظهرك، وأنا على جنبي، ومن جواري بطني، وكأنه كائنٌ مستقل. فاح الهواء برائحة الكلور، بينما تبدَّل لون الضوء بين الأحمر، والبرتقالي، والأخضر، والأزرق. وجدتُ على الحائط لوحة تشرح المغزى من تلك الألوان: فالأحمر هو لون العاطفة، ويُحفِّز على عملية التمثيل الغذائي. والبرتقالي هو رمز الإقبال على الحياة، كما أنه يُعزِّز وظائف الكلى. والأزرق هو لون الهدوء، ويُعزِّز صفاء الذهن. أما الأخضر، فهو لون الطبيعة.

صدحت مكبرات الصوت بنغمات ثابتة وهادئة، امتزجت مع زقزقة العصافير، وقطرات الماء، كما لو كنا وسط الغابة. ولكن صراخ الأطفال وهم يقفزون في المسبح طغى على تلك الموسيقى الناعمة.

قالت لنا موظفة الاستقبال أنه كثيرًا ما تتوافد العائلات إلى هنا في العطلات الرسمية، وإن "الساونا" أكثر هدوءًا من المسبح.

تركتني كي تُجري مكالمة، إما مع والدك، أو مع أحد عمال البناء، ولكنك عدتَ غاضبًا.

قلت لي:

- لابد أن أتابع كافة التفاصيل بنفسي! هؤلاء الحمقى يُفسدون كل شيء. إنهم يخرجونني عن شعوري!

أخذتَ تتشدق في الكلام، بينما حاولتُ أن أُنهي قراءة الجملة التي بدأتُها منذ دقائق. ارتفع صوت الأطفال وزاد عددهم. وبدأت قطرات حمام السباحة تتناثر على ساقي. تردد صدى صراخهم وضحكاتهم في أرجاء المكان. فالمساحة الصغيرة جعلت أصواتهم تصطدم بالجدران، لدرجة أنني ظللت أرتعد بين الحين والآخر.

صرختْ إحدى الأمهات قائلة:

- لا تحُدثوا ضجة! نحن لسنا وحدنا هنا!

ولكن بدلًا من أن يصمتوا، تعالت أصواتهم، وتحوَّلت إلى ضجيج لا يُطاق.

⌘⌘

كانت "الساونا" مظلمة، ويملؤها البخار، فلم أرَ الجالسين في الزوايا بوضوح. ولكني استعذبتُ هدوء المكان، حيث لم أسمع سوى فحيحًا بسيطًا مع اندفاع البخار، بينما فاحت رائحة الصنوبر في الأجواء. تدفق الهواء الساخن عبر رئتيّ، واختلط البخار بعَرقي، وتدفَّق على طول جسدي. فجأة، شعرتُ بركلة خفيفة، لم تدم سوى للحظة وجيزة. أغمضت عينيّ، ولكني شعرت بركلة أخرى بعدها على الفور. فوضعتُ كلتا يديّ على بطني، ولكنه كان صُلبًا للغاية، فأخذتُ أفرك عليه براحة يديّ، كما كانت تفعل أمي، كلما عانيتُ من المغص. وبالفعل، أخذتْ الركلات تقل تدريجيًا، حتى توقفتْ تمامًا. هل غفا طفلي؟ ارتديت ردائى، وتركت المكان.

⌘⌘

عمَّ الظلام أرجاء المنطقة، لدرجة أن الجبال بدت لي وكأنها ظلال في الأفق. لمعت أضواء المنازل في مستويات أسفل مني، بينما تعلَّق القمر الأصفر من فوقي، وبدا ككرة ضخمة ثقيلة على وشك الغرق في الوادي.

استعذبتُ الضباب الذي يستقر حول الغابات الصنوبرية في الصباح.. وهواء الجبل البارد.. والثلج الذي يُبهر العيون.. وصوت أحذية التزلج في غرف النزلاء.. وصرير الأرضيات الخشبية.. ورائحة الشتاء.. والصمت الذي يخيم على القرية في الليل، ويتلاشى مع حلول الصباح رويدًا رويدًا.

⌘⌘

وفي الصباح، ذهبتُ إلى الشرفة. كان الهواء باردًا، وخرج الدخان من فمي مع كل زفير. ها أنا ذا بمنأى عن دقَّات المطرقة، وفي حضرة السكون، والجبال الراسخة. ها أنا ذا، بعدما اجتزتُ مائة واثنين وثمانين يومًا، ولم يتبقَ لي وحدي سوى ثمانية وتسعون يومًا فقط، إنها حقًا مدة قصيرة!

غمرتْ الشمس الصخور بضوء يميل إلى الحمرة، بينما تبدد الضباب تدريجيًا، وعلا صياح الديك من مكان قريب. فالقرية تستيقظ في الثامنة صباحًا!

حاولتُ أن أوقظك، ولكنك كنت منهكًا من ضغط العمل وتجديدات البيت، فتركتك نائمًا، وذهبتُ كي أتناول فطوري في حديقة الفندق. انتهزت فرصة عدم وجود من يُوبِّخني، فوضعتُ في صحني قطعًا من

"السلامي"، وسمك السلمون المدخن، ولحم الخنزير المقدد، والجبن. كما شربت القهوة والعصير الطازج.

تأملتُ جدران المكان، فهي مصنوعة من الخشب الطبيعي، وكذلك اللوحات والزخارف. يطل المكان على منحدر التل والمزارع، حيث تلألأ الثلج مع شعاع الشمس. تخيلتُ تلك الإطلالة الساحرة في الكُتيب الدعائي للفندق، ومن فوقها عبارة: "استمتع باللحظة"، أو "المتعة غذاء الروح"، أو "أطلق لروحك العنان". سيحتاج الكُتيب إلى تصميم حروفٍ جميلة، إما باللون الذهبي أو الأبيض، وستحتاج ألوان الصورة إلى بعض التعديل، حتى تعكس بريق الثلج بوضوح.

كنت الوحيدة التي جلستْ وحدها. لم يكن معي أطفال يركضون في غرفة الإفطار، ويحتاجون إلى إطعامهم أو تهدئتهم. اتكأتُ على ظهري، في حين تطايرتْ رغوة الحليب على شفتيّ. تأملتُ قمم الجبال، وكتل الثلج التي استقرت فوق أسطح البيوت الخشبية في المزارع، بينما تصاعد الدخان من المداخن.

تدفَّقتْ السعادة في جسدي، وتسللتْ إلى أطراف أصابعي، فشعرتُ بأنني تخلصتُ من التوتر، ومن عبء كان يُثقل صدري. فصرتُ بلا وزن، وكأنني حشرةٌ صغيرة، تحملها نسمة خفيفة من الرياح.

أتيتَ إليّ، حاملًا الجريدة في يدك. وفي صحنك - كالعادة - قطعةٌ من الخبز، وملعقتان من الزبادي، وملعقة من العسل، مع علبة صغيرة من الزبد، وعلبتين صغيرتين من المربى؛ واحدة بالفراولة، والأخرى بالكريز، بالإضافة إلى وعاء "الموسلي". ولكني ابتعدتُ عنك، وأخذت أطير إلى أعلى،

وأحوم من فوقنا. رأيتكَ جالسًا أمام الجريدة، تمضغ خبزك بهدوء، بينما جلستُ بجوارك، دون أن أصرف نظري عن الجبال. تأملتُ تلك اللحظة الساكنة من حاضرنا. ثم طرتُ إلى أعلى، فصارت بقية الطاولات في مرأى بصري، وشاهدتُ بقية النزلاء، ولكن الصحف كانت تُغطِّي رؤوسهم، وهواتفهم تُحجِب عني نظراتهم. ظللتُ أطير إلى أعلى، حتى اخترقتُ السقف، ولكن الهواء صعقني، ففقدتُ السيطرة على جسدي، وانقلبتُ رأسًا على عقب، وانسقتُ مع التيار بلا حول ولا قوة. ولكني سرعان ما استعدتُ توازني بعدما تنفست بانتظام.

تراءت لي وجوه نزلاء الفندق مرة أخرى. وجدتك لا تزال منغمسًا في الجريدة، ولم تلحظ غيابي. وبينما طرتُ إلى أعلى، تضاءلت أحجام رؤوس النزلاء، حتى صارت تشبه رؤوس الدبابيس الدائرية. جرفتني الرياح بعيدًا، فحملتني إلى الغيوم، وابتلَّتْ ملابسي من الرطوبة، ولم أعد أرى سوى غيومًا بيضاء، وكأنني في حقل حلوى غزل البنات.

⌘⌘

استلقيتُ وحدي بجوار المسبح، فبعد أن اتصل بك والدك، تركتَني وذهبتَ إلى الغرفة. قلتَ لي:

– أريد أن أتفقد شيئًا في خريطة البيت. لن أتأخر، سأعود على الفور!

ولكنك غبتَ لمدة تزيد عن الساعتين.

استلقى الأزواج بجوار بعضهم بعضًا، ولعب الآباء مع أبنائهم. أما أنا، فنزلتُ المسبح ثلاث مرات، ودخلتُ "الساونا" مرتين. وكلما اتصلتُ بك،

وجدتُ هاتفك مشغولًا. أعلم أنك لم تكتفِ بإلقاء نظرة على الخريطة. لعلك اتصلت بوالدك أو برئيس العمال، كي تتأكد من أن كل شيء يسير وفقًا للخطة.

ليس من حقي أن أغضب منك، فأنا أعلم أنك ستقول لي أنك تفعل هذا كله من أجلنا؛ أنا وأنت وصغيرنا، وإن هذه المرحلة العصيبة سرعان ما ستمضي، وإنه علينا أن نغيِّر أولوياتنا، وأن نقدم بعض التنازلات، مثلما تفعل أي عائلة.

أعلم أيضًا أنك ستقول لي "أحبكِ"، فقد صرت ترددها كثيرًا في الآونة الأخيرة، وكأنك تؤكدها لنفسك.. أو تنطقها، لكي تسمعني أبادلك إياها، ولكي تطمئن من أنني ما زلت أحبكَ بعد كل هذه السنوات، أو أنني أحبك أكثر من ذي قبل، بعدما نما حبنا.

ولكني لا أنطقها، بل أربت على رأسك، وكأنك حيوان أليف يحتاج إلى الاطمئنان.

⌘⌘

أخذتُ أعوم في المسبح بضع مسافات قصيرة. ثم غصت في عمقه، حيث ابتلعت المياه كافة الأصوات، بينما صعَدَتْ فقاعات أنفاسي الصغيرة إلى السطح. تركتُ نفسي أنجرف مع حركة الماء، ورأيتُ الفسيفساء تلمع في أرضية المسبح وجدرانه. شعرتُ أنني خفيفة، وأخذتُ أسبح مثل الحيوانات البحرية من ناحية إلى الأخرى. كان كل شيء هادئًا وبطيئًا، وكأن الوقت قد توقف. لم أسمع سوى صوت فقاعات زفيري، كما لو كنت

وحدي مع المياه. وفجأة، شعرتُ بركلات الأقدام، وضربات اليد، وكأنني في دوامة. وعندما طُفت على السطح، حاصرني صراخ الأطفال مرة أخرى.

⌘⌘

في المساء، جلسنا في مطعم الفندق، حيث شاع ضوء الشموع في أرجاء المكان، وغمر الخشب بنور دافئ. بدا على النزلاء التعب والاسترخاء في الوقت نفسه. أخذتُ أجول بعيني وأقرأ أسماءهم داخل البطاقات الخشبية الصغيرة على موائدهم.

كان مكتوب على بطاقتنا: "عائلة تالار". هل من الممكن أن تتكون العائلة من فردين فقط؟

كنا في غاية الأناقة، فقد وضعتُ حول رقبتي عقدًا من اللؤلؤ، أهدتني إياه أمي، وارتديتَ أنت أيضًا قميصًا بنفسجيًا أهدتك إياه والدتك. كما صففتَ شعرك بالجل، وتطيَّبتَ بعطر قوي.

أسندتَ ظهرك على الكرسي، ثم ابتسمتَ لي، وربتَّ على يدي. قلتُ لنفسي، إنك حقًا رجل وسيم. فعيناك واسعتان ومشرقتان، وجسدك مفتول العضلات، ووجهك بارز الحواف، تتخلله خطوطًا رفيعة بين الأنف والشفاه. إنك حقًا تزداد وسامة وثقة بالنفس مع مرور السنين.

لقد تغيَّرت حالنا إلى الأفضل. أتتذكر كيف كنا نتشاجر في شوارع "إيسولو"؟ ها نحن الآن قد صرنا عائلة، ولم يعد هناك مجال للشجار في حياتنا. تبادلنا الابتسامات، بينما لمعت السعادة في عينينا. فعندما ننجح في تكوين عائلة، تغمرنا مشاعر الرضا.

اخترنا قائمة جاهزة، تتكون من ست وجبات. وأخذنا نتبادل عبارات من قبيل: "أليس المكان بديعًا؟"، "أليس المكان جميلًا؟"، "أليس المكان رائعًا؟"، ثم تأملنا الأجواء من حولنا؛ الأخشاب، والطعام، والمنظر الذي يطل عليه المكان. لقد اختارت والدتك فندقًا جميلًا حقًا. وبينما كنا في انتظار الوجبة الثانية، اتصلتَ بها، وسمعتك تقول لها:

- الفندق كالحلم.. نعم، نحن نتناول العشاء الآن.. نعم، ذهبنا إلى "الساونا".. حسنًا سأُخبرها.. عليكِ أن تسترخي يا "آندي"!

ثم غمزت لي بعينك.

جُلتُ ببصري في المكان، فوجدت الأزواج من حولي، إما بمفردهم أو برفقة أبنائهم. اختلفت أعمار الصغار، وكانوا يجلسون أمام الطاولات في هدوء تام. بدوا في أبهى صورهم، وكأنهم نسخٌ مصغَّرة من والديهم، حيث احمرَّت خدودهم، وارتسمت على شفاههم ابتسامات مبهِجة. صرنا أنا وأنت الآن أحد هؤلاء الأزواج، فنحن مثل التروس التي تنسجم حركاتها مع بضعها بمنتهى السلاسة.

قبلةٌ سريعة، أو عناقٌ قصير، أو ابتسامةٌ حنونة، أو لمسةٌ تقدير، كلها إيماءاتٌ بسيطة تعكس ترابطنا.

وبينما تناولنا "موس الشوكولاتة بالزنجبيل"، جلس رجلٌ أمام البيانو يعزف ألحان "إيريك ساتيه". قلت لي بعد أن رشفت من كأس النبيذ الأحمر:

- هذه آخر عطلة نقضيها وحدنا. ففي عطلتنا القادمة، بعد ثلاثة أشهر، سنصبح ثلاثة.

وإذا بعدة صور تتردد في رأسي: طفل يرضع من صدري، وطفل يصرخ بين ذراعيّ، وطفل ينام بيننا على الفراش.

تلألأ ضوء القمر في الوادي، وأخذ يتخافت رويدًا رويدًا، حتى دوت آخر نغمة من معزوفة "ساتيه".

⌘⌘

تسلل ضوء القمر عبر غرفتنا، أمسكتَ بيدي، ورقصتَ معي. كنتَ تمسكني بقوة، وتدور بي بلطف.

قلتُ لك:

– لا توجد موسيقى!

ولكنك كنت تقود الحركات بانتظام؛ خطوتين إلى الأمام، وخطوتين إلى الوراء، ثم تدور بي، مرة إلى اليسار، ومرة إلى اليمين. لا أعلم كم لبثنا هكذا؟

وعندما ضاجعتني، شعرتُ بالقرب منك أكثر من أي وقت مضى. وبعدها خلدنا إلى النوم متعبين. وفي الصباح، وضعنا حقائبنا في السيارة، لنخلف وراءنا آخر عطلة نقضيها وحدنا. وأخذنا نعلو ونهبط مع منحدرات الوادي، حتى وصلنا إلى البيت.

⌘⌘

طفلي لديه شعر وأظافر، وصار يضع إبهامه في فمه. كما تطوَّرتْ خلاياه العصبية وتحوَّلتْ إلى شبكة معقدة، فهو قادر على الفهم والتذكر، ولكن ماذا عساه يتذكر؟

⌘⌘

وقفتُ أمام المرآة، بطني كرة، يزداد حجمه وصلابته يومًا بعد يوم، حتى صار مثل الحجر. كما ازداد حجم ثديي. اقتربتُ من المرآة حتى لامسها بطني، فوجدتُ وجهي شاحبًا، وتجاعيدي أكثر عمقًا، ونظراتي مُتعبَة، والهالات السوداء حول عينيّ.

تلك الخيوط التي تسللت عبر وجهي، جعلتني أتذكر بعض تفاصيل أمي؛ استحضرتُ يدها، ذات الأصابع الطويلة الجميلة، والأظافر اللامعة الملونة.. كما تذكرت إحدى أغنيات ما قبل النوم.. وصوتها العذب.. ورائحة الياسمين، التي فاحت من وشاحها.. ودرج الأزرار في خزانتها.. ورائحة فطيرة التفاح.. وحذائها الأحمر الذي كان كبيرًا عليّ.. وسُتراتها الحريرية التي كانت فضفاضة عليّ.. وسريرها الذي امتزجت فيه رائحتها مع عطر المُنظِّفات.. وأقراطها التي وضَعتها في صندوق مُلوَّن صغير.. وكُتبها التي تكدَّست فوق طاولة السرير.. وخطها على شرائط الكاسيت: "فابريتسيو دي أندريه"، و"ليونارد كوهين"..

تذكرت كيف كانت تشد شعري بقوة، عندما تربطه في ضفائر.. وكيف كانت تجلس بجواري وتساعدني في واجباتي المنزلية.. وكيف كانت تقف على طاولة الكي، وتضحك وأنا أشاهد أفلام "جيري لويس" و"لوريل وهاردي".. وأنفها الذي كان يلامس وجهي عندما أبكي..

تُرى، في أي لحظة قررتْ أن تتركنا؟ وهي تكوي ملابسي؟ أم عندما كانت توصِّلني إلى المدرسة؟ أم وهي تطهو طعامي؟ تُرى، ماذا ستقول لي لو رأتني الآن؟

⌘⌘

رسمتُ خطوطًا صغيرة؛ موجاتٍ وشقوق. فمنذ أسابيع وأنا أحاول أن أرسم لوحة تُمثِّلنا؛ تُظهر ماضينا، وتُشير إلى مستقبلنا. أخذتُ أرسم الدوائر والمربعات، ولكن دون جدوى. وفجأة، تراءى لي وجهها؛ تذكرتُ كيف لمعت أسنانها البيضاء، وسمعتُها تتحدث إليّ بصوت خافت ودافئ، وكأنها تحاول أن تطمئنني. كما استحضرت لون عينيها، الذي مزج بين الأخضر والأزرق، مع بعض البقع الصفراء، وكأنهما كرات زجاجية. قلتُ لها:

– ارفعي صوتك، فأنا لا أسمعك جيدًا!

وبمجرد أن فرغت من هذه العبارة، حتى تلاشت ملامحها، وصار وجهها مزيجًا تجريديًا من الأزرق والأخضر والأحمر. فتركتُ الفرشاة، ومزقت اللوحة بالسكين.

فرشتُ لوحَة عملاقة على سائر أرضية الحجرة. وأخذتُ أرسم عليها الخطوط، حتى تحوَّلتْ إلى موجات، وظلَّت تتراكم وتزداد ارتفاعًا، وكأنها فيضان، اقتتم ماؤه، حتى صار أسود اللون. هُيِّئ لي أنني أسمع صوت الفيضان، وازدادت قوته، حتى انفجرت في أذني. وفجأة، وجدتني أقول لنفسي:

– لقد انتهيت.. هذه هي اللوحة!

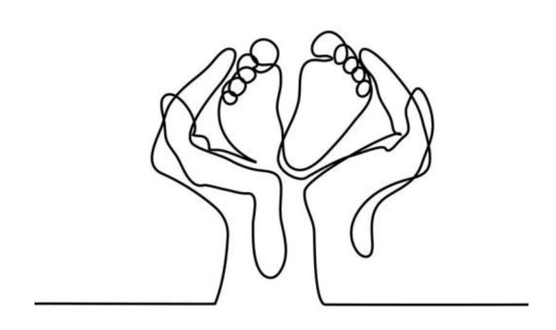
تركتُها في مكانها، تُغطي مساحة الحجرة بأسرها. كان لا بد أن أتجول في أرجاء المكان، كي أتمكن من رؤية كافة تفاصيلها.

قلتَ لي:

- إنها حقًا مدهشة!



الفصل السابع



شاركنا في دورة تحضيرية للولادة، وبدأ اللقاء بتعريف أنفسنا؛ الاسم، والوظيفة، وأسبوع الحمل، والحالة الصحية. رأيت الأمهات يجلسن القرفصاء على حصير اليوجا، في حين انتفخت بطونهن وسط أجسادهن؛ بعضها بدت مثل البالون، وبعضها تقوَّست قليلًا فوق حزام الخصر. لم يحضر من الآباء سوى عددًا قليلًا. ولذلك، كنتُ سعيدة، لأنك صممت على مرافقتي.

بدأتْ الجولة التعريفية في اتجاه عقارب الساعة، فكان من قبلي خمسة أمهات؛ "سيلفيا"، 23 عامًا، بائعة، ثم "مارينا"، 33 عامًا، معلمة ولديها طفلان، ثم "مارثا"، 37 عامًا، ربة منزل، ثم "إلاريا"، 32 عامًا، موظفة

استقبال، ولديها طفل واحد، وأخيرًا "سابين"، 20 عامًا، طالبة. تراوحت أسابيع الحمل بين السابع والعشرين والثالث والثلاثين. قالت "مارثا":

– لم أشعر في حياتي كلها بآلام مثل آلام الحمل.

ثم قالت "إلاريا":

– كانت شهور حملي بطفلي الأول أفضل فترة في حياتي. ولكنني هذا المرة، أستمتع بحملي مع قدر من الوعي، لأنني أدرك تمامًا تفاصيل التجربة.

وعندما جاء دوري، قُلتُ باقتضاب:

– "آندريا"، 35 عامًا، مصممة جرافيك، في الأسبوع السابع والعشرين من الحمل. وليست لديّ أية شكاوى.

ثم نظرتُ إلى زميلتي من بعدي، ولكن مُختصَّة التوليد لم تكتفِ بكلامي، فسألتني:

– ألا تريدين أن تشاركينا أية تفاصيل إضافية؟

فأجبتها:

– ليس لديّ ما أقول، فالأمور طبيعية.

فسألتني:

– هل صرتِ تشعرين بطفلكِ؟

فأجبتها:

- نعم، فهو يستمر في الضغط على أمعائي. سأكون حقًا سعيدة عندما يخرج من بطني!

تعالتْ ضحكات الأمهات، فسألتهن المُختصَّة:

- هل ينتابكن الشعور نفسه؟

فقالت "مارثا":

- نعم، فالألم يقتلني، ولم أعد قادرة على فعل أي شيء بمفردي. ولكن زوجي لا يصدقني، ويقول لي: "توقفي عن التظاهر بالألم. لديكِ طفلان، كيف اجتزتِ فترة الحمل مرتين؟"

ضحكنا جميعًا، ثم قالت "سيلفيا":

- إنني أعاني من احتباس الماء، وحُرقة في المعدة، وآلام مُبرحة في الظهر، ولا أستطيع النوم في الليل، لأن طفلي لا يتوقف عن الحركة.

فتبعتها "أنيتا" قائلة:

- لقد زدتُّ ثلاثين كيلوجرامًا، ولم أعد أطيق النظر في المرآة.

فقالت المُختصة:

- أطلِقن العنان لمشاعركن، فأنا هنا لكي أستمع إليكن. أتريدين أن تقولي شيئًا يا "آندريا"؟

فأجبتُها:

- لقد تعبتُ حقًا من سيرك الحمل هذا!

وحينها، رتبتَ على ظهري، وهمستَ لي قائلًا:

- حبيبتي...

بينما قالت المُختصة:

- أتفهم ذلك كُلِّيًا. عديدٌ من النساء يشعرن مثل "آندريا". فالأسابيع الأخيرة من الحمل مُجهدة للجسد. فهناك طفلٌ ينمو بداخلكن، ويمكن أن يصل وزنه مع نهاية فترة الحمل إلى خمسة كيلوجرامات. إنه حقًا حملٌ ثقيل، وعليكن أن تعترفن بذلك. فالتجربة ليست وردية على طول الخط. ولذلك نحن هنا، لكي نُعِّدكن لتلك الأسابيع الأخيرة على أكمل وجه.

ثم استطردتْ قائلة:

- آلام الطلق مثل أمواج البحر، حيث ينزلق الطفل إلى الأمام، ثم يعود إلى الخلف. ويصل الألم إلى ذروته، عندما يكون رأس الطفل على وشك الخروج. ففي تلك اللحظة تشعر الأمهات أنها تتمزق، ويصبح الألم غير محتمل. ولكنها سرعان ما تمضي. يبكي أغلب المواليد في غضون ستين ثانية على أقصى تقدير. ودائمًا ما أدير رأسهم إلى الجنب، كي أتأكد من تفريغ الفم من رواسب السائل الأمنيوسي. تذكرن أن فضاء الطفل كان ضيقًا، ثم صار واسعًا، وكان مظلمًا، ثم صار مُضيئًا، وكان دافئًا، ثم صار باردًا. وبعدما يجتاز تلك الصدمات الأولى، يتعالى صراخه.

تخيلتُ نفسي واقفة على الشاطئ، تغمرني رائحة الملح وأصوات الأمواج. فأرى في الأفق موجة تتجه نحوي، ولكنها تثور وتزداد ارتفاعًا كلما اقتربت مني. أقول لنفسي أنها ستهدأ قبل أن تصل إليّ. ولكنها تزداد

صخبًا، بينما تقذفني الرياح بحبات الرمل. فأقرر أن أتنفس، وأعد إلى عشرة.. وإذا بي أسمع المُختصة تقول:

– عليكن بتمارين التنفس. كما أن الحركة مهمة.

وضعتَ يدك على بطني، وأخذنا نتنفس معها. ثم قلتُ لك:

– أي نوع من السيرك هذا؟

شعرتُ بتشنجات في بطني، وألمٍ مبرح في ظهري، لم أقدر على تحمله. ولكني جززتُ أسناني واستكملتُ العد، وأخذتُ أنفاسًا طويلة وعميقة، لدرجة أن رئتي كادت تنفجر.

همستَ لي قائلًا:

– نعم، إنه موقف مضحك، ولكن عليك أن تأخذيه بروح الدعابة. اضحكي! فحالما تلدي طفلك، سيتغير كل شيء.

كثيرًا ما تتردد تلك العبارات على مسامعي في الآونة الأخيرة؛ عبارات من قبيل: لا يمكنك أن تتخيلي شعورك بالطفل قبل أن تلديه بالفعل.. الطفل يقلب الأحوال رأسًا على عقب، فلا شيء من بعده يعود كما كان.. ستعرفين معه أقصى درجات التضحية.. ستؤثرينه على نفسك.. سيغيِّر نظرتك للحياة.. ستعيشين معه حياة مختلفة، ولكنها ستكون أفضل.. لا يمكنك أن تتخيلي حجم الحب، والأرق، والتضحية، والمسؤولية التي ستجتاحك.. ستندهشين من قدرتك على إنجاز عدة أمور، على الرغم من حرمانك من النوم.. ستمر عليكِ الشهور الأولى، وكأنك في غيبوبة، أو كأنك تعيشين في عالمك الخاص؛ عالم غريب، ولكن جميل في الوقت نفسه.. لن تستوعبي

ذلك الآن.. ستعيشين معه حياتك بقدر من الوعي.. ستُقدِّرين أبسط الأشياء.. ستضحكين أكثر من أي وقت مضى.. ستزداد سعادتك يومًا بعد يوم.. ستقضين أغلب الأوقات وحدك.. سيعمل زوجك طوال اليوم، وسيعود إليكِ في المساء متعبًا، لا طاقة له لأي شيء؛ لا لكِ، ولا لطفلكِ.. ستتغير دائرة أصدقائك، لتشمل أمهات آخرين، بدلًا من أصدقائك الذين ليس لديهم أطفال.. قبل أن تغادري البيت، ستقضين عدة ساعات في تحضير كافة المستلزمات، وسط بكاء طفلك، وحاجته إلى الإطعام، وتغيير الحفاضة.. ستتقلص دائرة نشاطك، لتقتصر على المنزل، والسوبرماركت، وطبيب الأطفال.. ستقتصر محادثاتك على أغذية الأطفال وحفاضاتهم.. سيبدو بيتك مثل ساحة المعركة.. ستتلطخ ملابسك بالقيء.. لن تفكري في نفسك، ولا في احتياجاتك.. لن تفكري سوى في طفلك، وفيما يفعل، وكيف ينمو، وماذا يقول.. ستصبحين مسؤولة عن غذائه، وملابسه، وحفاضاته.. لن تنامي أكثر من ساعتين متواصلتين، وستشعرين بالتعب والضعف.. بالنسبة لكِ، سيتغيَّر كل شيء، أما بالنسبة لزوجك، فلن يتغير سوى القليل.. سيظل يعمل وينام كما كان يفعل من قبل، وعندما يعود إليكِ في المساء، سيسألك: "ماذا فعلتِ طوال اليوم؟"

عليكِ أن تدركي تلك التفاصيل كلها، قبل أن تجلبي طفلًا إلى العالم، وعليكِ أن تتحرري من الأوهام، فلا شيء سيعود كما كان، وستكون السنة الأولى مع طفلك هي أكثر الأعوام إرهاقًا في حياتك!

⌘⌘

يقولون إن الأطفال هم الحياة، واستمرارية الإنسانية.. يقولون إنهم يرغبون في الإنجاب دون سبب محدد، لأنه أمرٌ طبيعيّ.. يقولون إن قرار الإنجاب لا علاقة له بخوفهم من الوحدة، أو رغبتهم في خلق صورة مصغرة من أنفسهم.. ولا علاقة له بالتطلع إلى ترك الوظيفة، أو تعزيز علاقتهم بالطرف الآخر.. ولا علاقة له بحاجتهم إلى من يعتني بهم في سن الشيخوخة.. ولا علاقة له برغبتهم في ترك أثر في هذه الدنيا، أو إضفاء معنى لهذه الحياة.

ولكن أنا وأنت لا تهمنا الأسباب.. فقد أردنا أن نخوض تلك التجربة، لأننا كنا مستعدين لها!

⌘⌘

أصبحتْ بطني مدينة ملاهي، فقد كنتَ تأتي بفكرة جديدة كل يوم لتسلية الطفل؛ مرة تقرأ له قصة، ومرة تعزف له الموسيقى، وأحيانًا تغني له، وأحيانًا تُسلِّط على بطني مصباحًا يدويًا في الظلام. فقد قرأتَ عن أهمية التواصل مع الجنين، وأنه يستجيب للموسيقى والصوت، والضوء، وأنه يميِّز صوت أبيه بعد الولادة.

وضعتَ أذنك على بطني قائلًا:

– مرحبًا! أين أنت؟

فقلتُ لك:

– إنه لا يسمعك!

- انتظري! مرحبًا! مرحبًا! هل أنت مستيقظ؟

- إنه يتحرك. إنني أشعر به.

ثم أمسكتُ بيدك ووضعتها عند موضع الحركة في بطني، فأخذتَ تضغط على بطني، وأخذ هو يبادلك الحركات من الداخل، فقلتَ لي:

- أعتقد أنني أشعر بيده.

- مستحيل!

- بلا! ضعي يدكِ هنا!

- هذه قدمه!

- كلا إنها يده، فهو يستطيع الآن أن يضم قبضة يده. ويستطيع أن يلمس أصابع قدمه، ويفتح عينيه، ويميِّز بين النور والظلام. انظري!

أمسكتَ المصباح اليدوي وأخذتَ تحرك النور على بطني، فتحرك الطفل مرة أخرى، فقلت لي:

- لقد صار أكثر حساسية. إنه يشعر بكل شيء؛ بسعادتك، وتوترك.

ثم همستَ في أذني قائلًا:

- أريدكِ أن تظلي سعيدة، وأن تتجنبي التوتر تمامًا.. فلنرى ردة فعله الآن!

ثم أخذت تقبلني.

⌘⌘

لن يشغل منصبي زميلٌ آخر. سيوزع مديري مهامي على بقية الزملاء، وقد رحَّبوا بذلك على الرغم من كثرة أعبائهم. كما أن إحدى زميلاتنا ستعود إلى العمل بدوام كلي.

يمكن القول إن الشركة "ابتلعت" منصبي – وأعتقد أن ذلك هو الحل الأنسب لنا جميعًا – ولكن هل من الممكن أن "تبصقه" مرة أخرى؟ لم أشغل بالي بذلك، بل ذكَّرتُ نفسي أنني طالما حلمت بتغيير وظيفتي. من يعلم متى سأعود إلى العمل، أو عدد الساعات التي سأتمكن من استيفائها؟

ومع مرور الأيام، اقترب يوم إجازتي. وبينما كنا نتحدث في اجتماعاتنا عن الجداول الزمنية، ونسبة رضا العملاء، ازداد إحساسي بانعدام الفائدة، وشعرتُ أنني مجرد زائرة في مكتبي الخاص. كنت أعلم أنني سرعان ما سأمكث في بيتي، وأنتظر ولادة طفلي.

أرسلتْ لي "ساندرا" رسالة من "هامبورج"، تنصحني بعدم القلق، والاستمتاع بلحظات الحمل الأخيرة، لأنها ستمضي سريعًا.

تخيلت نفسي جالسة في منزلنا الفارغ، بين جدرانه العارية، أنتظر وصولك. وعندما تعود من العمل متأخرًا، تُقبِّلني، ثم تسأل: "كيف قضيتِ يومك؟"

تخيلت أنني أضع الأثاث في بيتنا، وأُعلِّق اللوحات، وأفرز الكتب، وأطلي حجرة طفلنا، وأزرع الأزهار، وأجلس في حديقتنا. سيكون لديّ وقت لرسم اللوحات، وقراءة الكتب، والاستلقاء على السرير، ولكني سأشعر بالفراغ، أو بثقب أسود، يشدني إلى أسفل.

سيسير العمل في المكتب على أكمل وجه، ولن يفرق وجودي من عدمه. أما في البيت، فسأكون وحيدة، وسأتعامل طوال الوقت مع أمهات، لا ينشغلن سوى بأبنائهن، ويقُلن إنهم مصدر فخرهن الوحيد، وإنهم سيحققون ما لم يتمكنَّ من تحقيقه.

⌘⌘

وقفنا في دائرة، بينما تكدَّست الطاولة بالهدايا، وامتلأ السقف بالبالونات الملونة. تناولنا ساندويتشات صغيرة، وشربنا عصير البرتقال في كؤوس "الشامبانيا"، احتفالًا بآخر يوم لي في العمل، وكأن جلوسي في البيت طوال اليوم بينما يعمل بقية زملائي، أمرٌ يستحق الاحتفال.

سألوني: "هل انتهيتما من إعداد غرفة الطفل؟"، "هل تشعرين بالخوف من الولادة؟"، "متى ستعودين إلى العمل؟"، "نحن سعداء من أجلك!".

آلمني فمي من كثرة الابتسام. وازدادت قوة الركلات في بطني، لدرجة أنني تنفست بصعوبة من شدة الألم. جلستُ في وضع مستقيم ومددت ظهري، وأخذتُ أتناول ساندوتشاتي وأشربُ عصيري، ثم سألتهم:

– أتريدون أن تلمسوا بطني؟ إنني أشعر بركلاته الآن.

وبالفعل، أخذوا يلمسون بطني بالتناوب، وقالوا إنهم يشعرون به!

⌘⌘

لقد حققنا أمانينا كلها.. لمَ الجلبة حول مدريد، و"هامبورج"، والمعارض الفنية، والسفر؟ إنها ليست سوى أوهام.. مجرد أمنيات

بسيطة لا قيمة لها.. فما هي إلا أحلام يقظة، أو أفكار ساذجة، تدور في رأسنا جميعًا. من منا لا يحلم بالعيش في مكان آخر، إن كان في المدينة، أو بجوار البحر؟ ومن منا لا يرغب في أن يُطلق العنان لإبداعه، فيتحول إلى فيلم، أو معرض فني، أو مقطوعة موسيقية، حتى نترك إرثًا في هذه الدنيا؟ ولكن هل يوجد إرثٌ أعظم من طفلي الذي ستبدو ملامحه مثل ملامحي، وسيتذكرني طوال حياته، وسينجب أحفادي؟

لا شك أن طفلي هو الكفة الراجحة، وهو أهم من أي شيء آخر في هذه الدنيا. ستظل صورتي معلقة على جدران بيته وبيوت أبنائه، وسأعيش بفضله قرنًا من الزمان.

عندما نبلغ من العمر أرذله، نتأمل حياتنا التي مضت، ونفخر بعدة أشياء؛ بوظائفنا، وبيوتنا، وأبنائنا.. نفخر بسداد القروض، وبتجديد ما كان قديمًا، وبخلق مساحة أكبر لما كان صغيرًا.. إنها أمور تبدو بسيطة، ولكنها في واقع الأمر كبيرة.. بل هي أساس الحياة!

من حقك أن تشعر بالفخر، وعليّ أن أشاركك هذا الشعور. فقد حولنا بيت الأحلام إلى حقيقة؛ من طوب وحجر، وسنطأ داخله بأقدامنا، ونقضي فيه بقية حياتنا.

سألتني:

- أتدركين مدى جمال حياتنا؟ انظري إلى قصرنا، كم هو راسخ!

⌘⌘

في إحدى ليالينا الأخيرة في شقتي، استلقينا على السرير وتلامست أجسادنا. عانقتني من الخلف، وضممتني إليكَ بقوة، ثم قبلتَ رقبتي، وأسندتَ ذقنك على كتفي.

قلتَ لي:

- لقد تحققت كل أمنياتي.. كم أتوق إلى العيش في بيتنا الجديد!

فقلت لك:

- لم يتبقَ سوى بضعة أيام!

- أنتِ لا تعلمين كم أحبكِ.

- بلى!

عندما خلدتَ إلى النوم، ثقُل جسدك، ورقد رأسك كالحجر على كتفي، وضغط ذراعك على بطني، وآلمت عظامك ساقي. حملت ذراعك الذي كان ثقيلًا كلوح الخشب، ووضعته جانبًا، ثم انزلقت إلى حافة السرير، ولم أعد أشعر بأنفاسك. فقط حينها، رُحتُ في النوم.

في الحلم، كنت تقود سفينة، وأنا وراءك. ابتعدنا عن الشاطئ بأميال، وازداد عصف الرياح، فكنا نتأرجح، ونطير فوق الأمواج، ثم نضرب سطح البحر، فيفور الماء من تحتنا، ولكنه كان صلبًا كالحجر. خفتُ أن تتدمر السفينة، إذا ما اصطدمت بالموج مرة أخرى، ولكنها واصلت الإبحار بعد كل تصادم. ومع قوة الرياح، وارتفاع الأمواج، لم تعد قادرًا على التحكم في المقود!

استيقظتُ مفزوعة، ووجدتك بجواري مستلقيًا في سكون تام. بدت على وجهك ملامح الرضا، وكأنك في حلم جميل.

⌘⌘

لمت كتبي وملابسي وألواني وفرش الرسم داخل الصناديق، حيثُ وضعتُ الكتب الثقيلة أولًا، ومن فوقها الملابس الخفيفة.

تخلصتُ من بقية أغراضي، كما طلبتَ مني. فقد مزقتُ لوحاتي القديمة التي لم تعد مهمة بالنسبة لي. كما وضعتُ ملابسي، التي لم أعد أرتديها منذ عدة عقود، في كيس أسود كبير، مع أغراض المدرسة، والصحف القديمة، والكتب المصورة، والأقراص المدمجة التي كنت أستمع إليها في عمر المراهقة، وكتب "كافكا"، و"دوراس"، و"دوستويفسكي"، التي فرغت من قراءتها، بالإضافة إلى أكوام من علب السجائر، والطوابع، والأزرار، وكرات البليّ، التي كنت أحرص على تجميعها.

كلما نقبتُ أكثر داخل الصناديق والأدراج، كلما وجدتُ أغراضًا أقدم، مثل الدمى، والحيوانات الفرو، التي فاحت بعبق الطفولة، والعفن، والبلاستيك. أمسكتُ بدبٍ فرو، يصل طوله إلى خصري، وكان يومًا ما أطول مني. صار فروه متلبدًا ومغبرًا، وفقد إحدى عينيه.

وفي الدرج الأخير، وجدتُ عديدًا من الألبومات، والصور المتناثرة. وقعت عيناي على صورة لي وأنا حديثة الولادة، ملفوفة بالقماش بين بقية الأطفال، وأخرى مع أمي، وهي تحممني في وعاء بلاستيكي، بينما تبتسم للكاميرا.

وجدت صورًا تُخَلِّد أول لحظة على متن الدراجة، وأول زيارة للشاطئ، وأول زي تنكري، وأول يوم في الحضانة، وأول رحلة تزلج.

تأملتُ صوري مع أبي، وأنا أقف فوق كتفيه القويتين، وأرقد على حجره، وأجلس معه في السيارة خلف عجلة القيادة، بينما تنزلق نظارته من أنفي.

ثم أمسكتُ بصورة لي مع أمي، ونحن نتأرجح معًا. كانت حافية القدمين، وارتدت فستانًا طويلًا أحمر اللون، بينما تطايرت تجاعيد شعرها في الهواء، وارتسمت على شفتيها ابتسامة مشرقة، وبدت في غاية البهجة والسعادة. ما زلت أتذكر كيف وضعنا على شعرنا زهورًا مقطوفة، وكيف وقف والدي أمامنا وأخرج لسانه، وهو يلتقط لنا تلك الصورة.

وضعتُ الصور أمامي، فبدت مثل لوحة فنية متكاملة، تعكس محطات مختلفة من طفولتي. حاولت جاهدة أن أستحضر معها ذكرياتي. تذكرت ضحكات أمي، ومسكة يدها، وكتفيّ أبي، ويده الكبيرة التي كانت تغطي يدي.. تذكرتُ كيف انفلت بالون "الهيليوم" من يدي، وكيف سقطتُ من الدراجة.. تذكرتُ عناقًا، وقبلة فوق الأنف، وخدش شعيرات ذقن أبي.. تذكرتُ باب غرفتهما المغلق، وقرع الأبواب، والشظايا المتناثرة على أرضية المطبخ، والهاتف المكسور، ودموع أمي، وعزفها على البيانو، وغناءها، ووجه أبي، الذي حجب وجه أمي، والعروق التي برزت فوق جبينه.

هكذا ظللت أستحضر صورة تلو أخرى، ورتوشًا غير واضحة من طفولتي. تراءى لي أبي وكأنه شخصٌ غريب، فكلما حاولت أن ألمسه، تلاشى مثل الشبح. هكذا هو في ذاكرتي؛ إما غائبًا، أو حاضرًا في الخلفية. ولكني أتذكر وجهه، وعينيه الداكنتين، وكيف كنتُ أصرخ فيه، وهو

يُخفض رأسه، ويرمقني بنظرات بائسة وحزينة، وكيف كان يتلعثم، ثم يصمت.. هل كان يبكي؟ لا أتذكر أنني رأيته يبكي!

⌘⌘

جلستُ مع "مارلينا" على الأرض في بيتنا الخالي، بين الصناديق والحقائب، حيث وضعتُ قليلٌ من النبيذ في عصير البرتقال، بينما احتست هي بقية الزجاجة.

قلتُ لها:

– هذا كل شيء!

فقالتْ لي:

– نعم، ستبدآن فصلًا جديدًا من حياتكما.

دققنا كؤوسنا، فقالت:

– في صحتك!

– في صحتنا!

– إنني أحسدك بعض الشيء!

– لماذا؟

– لأنني سأتم عامي السادس والثلاثين قريبًا، وما زلت غير مستعدة لتربية الأطفال.

– أنا أيضًا لست مستعدة لذلك!

فضحكتْ قائلة:

- ولكنكِ على وشك الإنجاب!

⌘⌘

أحيانًا أتخيلك واقفًا بجوار سريري في المستشفى، حاملًا في يدك باقة ورد.

وأحيانًا أتخيل أننا نعود إلى بيتنا مع طفلنا بين ذراعيّ.

وأحيانًا أتخيل أنني أتمشى في ممرات المستشفى بعد الولادة، في جوف الليل، دون أن يردعني أحد، فأظل أمشي حتى أختفي.

وأحيانًا أتخيل أن طفلي له رأسان؛ رأس يشبهك وآخر يشبهني.. ولديه رقبة طويلة، وأربع أيادي، وثلاثة سيقان.

وأحيانًا أتخيل أن الأطباء يُخرجون من بطني طفلًا أزرق، فيحملونه من قدميه، ويصفعونه برفق على مؤخرته، ولكنه لا يبكي.

وأحيانًا أتخيل أنك جالسٌ مع طفلنا في حديقة المنزل، وتبدوان في غاية السعادة، ثم تأتي إليكما امرأة أخرى، ولكنها تشبهني بعض الشيء.

وأحيانًا أتخيل أنني أقطن في مدريد، فلا يعلم أحد هنا أين أنا، ولا يعلم أحد هناك من أين أتيت. أراني واقفةً في الشرفة، أرتدي فستانًا طويلًا أحمر اللون، وأتأمل ساحة الـ"بلازا" الشهيرة، حيث تتعالى ضحكات الراقصين، فأنزل إلى الشارع وأنضم إليهم.

⌘⌘

حلمتُ أنني تركت البيت، وأخذت أمشي في الشارع، حتى وصلتُ إلى مبنى قريب. فانتظرتُ أمام البوابة، حتى خرج منها شخصٌ، فتسللتُ إلى الداخل. صعدتُ السلالم لاهثة، حتى وقفت أمام إحدى الشقق، ووضعت أذني على الباب. ولكني لم أسمع شيئًا، فظننت أنه لا يوجد أحد بالداخل. وفجأة، سمعت صوت التليفزيون، فطرقت الباب، ولكن لم يفتح لي أحد، فقرعت الجرس. وبعدها، سمعت خطوات وصريرًا على الأرض، وشعرت بشخص ينظر إليّ عبر ثقب الباب، ثم سمعت صوت المفتاح، حتى انفتح الباب أخيرًا. وعندما دخلت الشقة، خلعت معطفي وحذائي ثم استلقيت على السرير مع رجل غريب.

توقف الزمان، واكتنف الظلام أرجاء المكان. شعرت بجسده فوقي، وصوته يُخاطبني، ويده تمسكني بقوة. كان جسدي خفيفًا، فأخذت أطفو إلى أعلى رويدًا رويدًا، حتى دارت النجوم من حولي، وكأنها يراعات صغيرة، فظللت أدور معها في الهواء، إلى أن شعرت بالدوار. وفجأة سمعته يناديني: "آندي".

كان الجو خانقًا. تسللتْ رائحته الغريبة إلى أنفي، وشعرتُ بشفتيه الغريبتين على جسدي. نظرت إلى عينيه؛ كان لونهما ترابيًا، وحدقاتهما تشبه الكواكب الصغيرة. رمقني بنظرات غريبة، وابتسامة متعبة. شعرت بالبرودة، وأخذت أتحسس هذا الجسد، ولكنه لم يكن مألوفًا لي.

استيقظت بجواره على صوت دقات المطر على سطح البيت، ولكنها سرعان ما ازدادت وقرعت بقوة. تطابق إيقاعها مع إيقاع أنفاسنا التي ملأت المكان. كانت الحجرة صغيرة وقاحلة. رأيت على الحائط إحدى

لوحاتي؛ امرأة تقف أمام البحر، بينما تتعالى الأمواج، وتقترب منها أكثر فأكثر. ارتديت سترته المعلقة على ظهر الكرسي، وأمسكت حذائي، ومشيت بهدوء نحو الباب. وما إن حركت مقبض الباب إلى أسفل، حتى سمعته من الغرفة يسألني بصوت خافت: "لماذا ترحلين؟".

⌘⌘

اقترب موعد انتقالنا إلى بيتنا الجديد، بعدما اكتملت تفاصيله شيئًا فشيئًا. فمع كل جدار، رسمنا حدود حياتنا، ومع كل مقبس، اطمأنت قلوبنا، ومع كل خط كهرباء، ازداد إحساسنا بالالتزام تجاه بعضنا بعضًا.

رأيت في غرفة الأطفال مستقبلنا. نصبنا فوق نوافذها ستائر ملونة، ووضعنا في المنتصف مهدك عندما كنت رضيعًا، وزيَّنا الرفوف بكتب الأطفال، وحيوانات الفرو. إنها حقًا أجمل حجرة أطفال وجدناها في متاجر الأثاث، فالسرير به طابقان، وجدار تسلُّق، ومزلقة. وعندما نُشعِل المصباح، تتلألأ في السقف نجومٌ وأهِلَّة صغيرة، تدور من فوقنا. تلك هي الغرفة التي طالما حلمت بها وأنا صغيرة.

تراءى لي طفلنا جالسًا على الطابق الثاني من السرير، ثم ناداني قائلًا:

– تعالي يا ماما! احكي لي قصة.

فقلت له:

– لا أعرف أي قصص، اذهب للنوم!

فقال لي، بينما تدلَّت ساقاه من السرير:

- ولكني أريد قصة يا ماما!

ثم أخذ يناديني قائلًا:

- ماما.. ماما.. ماما.. ماما! اقرئي لي قصة!

شعرتُ بتشنجات في بطني، وضيق في حلقي، وانتابني بعض الدوار، فجلست على المزلقة، بينما ناداني طفلي سائلًا:

- لماذا تتأخرين هكذا؟

- أعطني خمس دقائق فقط!

أغمضتُ عينيّ واتكأت على ظهري. تسللت البرودة إلى جسدي، ولكني لم أجد غطاءً على السرير. وإذا به يكرر نداءه قائلًا:

- ماما اقرئي لي قصة! ماما.. ماما.. يا ماما!

- توقف!

- يا ماما هيا تعالي!

- اخرس!

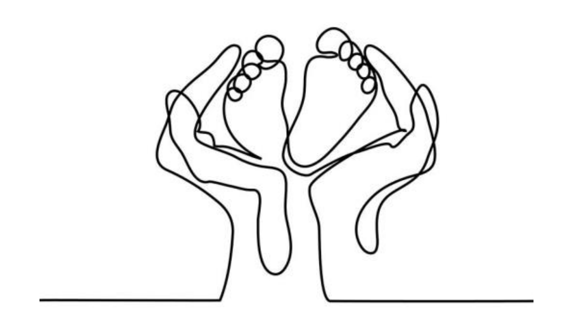
- ماما.. ماما.. ماما!

- كفى! دعني وشأني!

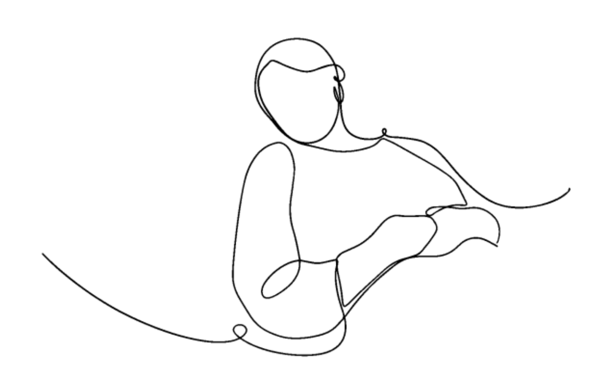
⌘⌘

رأيت أبي في الحلم واقفًا خلفي، ويُصَوِّب مسدسه نحوي. أرادني أن أختار بين طلقة في الرأس، أو في الفم. ولكني لم أستطع اتخاذ القرار،

فأطلق النار على رأسي، ولكني لم أشعر بأي ألم، فقط ببعض الارتجاج البسيط. وبعدها، أمسكتُ برأسي، فشعرت بالطلقة وكأنها قشرة في شعري، وتعجبت لأنني ما زلت على قيد الحياة. وبعد ذلك، يختفي أبي، فأتصل بالنجدة، ولكن الرقم يظل مشغولًا.



الفصل الثامن



استيقظت من ذلك الحلم الطويل لأجد عدة أنابيب صغيرة متصلة بذراعي، وبجواري جهاز قياس نبضات القلب. كانت توجد ثلاثة أَسِرَّة في الحجرة، رقدت عليها سيدات أخريات، إما وحدهن، أو مع طفل رضيع. رأيت باقة ورد فوق طاولة السرير، ووجدتك جالسًا بجواري على الكرسي وممسكًا بيدي، بينما ارتسمت تعابير القلق على وجهك. قلتَ لي:

– كم قلقنا عليكِ!

وبعدها، جاءت الطبيبة، وتفحَّصت الملف الخاص بحالتي، ثم قالت:

– الطفل بخير، ولكنه يضغط على الوريد الأجوف السفلي، مما يؤثر على تدفق الدم إلى القلب. إنها حالة شائعة الحدوث، فلا داعي للقلق. تحتاجين فقط إلى الاهتمام بغذائك وشرب كمية كافية من السوائل. أرجوكِ لا تُرهقي نفسك، وحاولي أن تسترخي، فقد أصبحتِ في الثلث الأخير من الحمل.

⌘⌘

هكذا رقدت على سريري لعدة أيام، بينما انشغلتَ أنت بعملك، وبترتيبات الانتقال إلى بيتنا الجديد. حرصتُ على أخذ قسطًا وافرًا من الراحة، واستلقيتُ طوال الوقت على جنبي، لأنني كنتُ أُصاب بالدوار، كلما رقدتُ على ظهري.

كنتُ أنام، أو أقرأ كتابًا، أو أستلقي أمام التليفزيون لأشاهد الأخبار التي تكررت كل ساعة، حيث ينظر المذيعون إلى الكاميرا بجدية، ويتناولون كافة الأحداث بنبرة الصوت نفسها. فهم يتحدثون عن مباريات كرة القدم، والحرب النووية الوشيكة، وانهيار العالم، وارتفاع نسبة البطالة، والقومية الجديدة، والزيارات الرسمية، والبورصة، والمعاملات المالية، والحدود الاقتصادية، وتجارب الصواريخ، وأنظمة الدفاع، والإضرابات العامة، وميزانيات السياسيين، ومستوطنات الفضاء، وزيادة التدابير الأمنية، والمسرحيات الموسيقية الجديدة، وجرائم القتل، وهجمات الأسلحة الكيماوية، واعتقال الصحفيين، والكواكب الجديدة خارج المجموعة الشمسية، والحروب الأهلية، وتغير المناخ، والهجمات الإرهابية، وجرائم القتل العشوائية، والدفاع المدني، واللغات المحتضرة، والعناكب العملاقة حديثة الظهور التي يبلغ طول ساقها ثلاثة وعشرين سنتيمترًا،

وحالة الطقس، واستمرار هطول الأمطار، وعصف الرياح الذي يصل إلى ستين كيلومترًا في الساعة.

⌘⌘

وبينما تساقطت الأمطار، واستقر الضباب فوق الجبال، وتلبَّدت السماء بغيوم مظلمة، خرج من شقتي صندوقٌ تلو الآخر، حتى خلَتْ تمامًا.

تأملتُ الرفوف الفارغة، والجدران العارية التي ظهرت عليها آثار اللوحات، وبعض الثقوب والطلاء المقشر. لم يكن هناك على الأرض سوى التراب والغبار. عدتُ بذكرياتي إلى أول يوم لي في هذه الشقة، وتذكرتُ شعور التحرر الذي اجتاحني بعدما فارقتُ أبي. قمتُ بنفسي بتركيب الأرضيات والبلاط، وطلاء الجدران، وفرش الأثاث، وتعليق الرفوف. فصنعتُ من تلك التفاصيل ملاذًا جديدًا، حتى تلاشى الماضي من حياتي.

بحثتُ عن آثار السنوات العشرين الماضية، ولكني لم أستشف شيئًا من شقوق الجدران وتغيُّر لونها. كان يمكن لأي شخص آخر أن يسكنها، ولكنها كانت من نصيبي. أغلقتُ الباب ورائي للمرة الأخيرة، ونزلتُ إليك.

كنتَ تنتظرني داخل الشاحنة. سألتني:

- هل أحضرنا كل شيء؟

سارت بنا الشاحنة على طريق مُتعرِّج، حتى وصلنا إلى حي صغير. أحاطت الجبال بالوادي واقتربت منا كلما مضينا في طريقنا. كما ارتفعت النتوءات الصخرية، ورأيتُ حولها شبكات فولاذية، تحمي الطريق من الأحجار التي تتفكك وتتساقط من الصخور. عبَرَتْ الغزلان والجديان من

أمامنا، فكان علينا أن نتوخى الحذر ونقود السيارة ببطء، حتى وصلنا أخيرًا إلى منزلنا الجديد على حافة الغابة.

أدى تدفق الحطام عبر السنوات الماضية، إلى إتلاف مساحة كبيرة من الغابة، بعد أن تكدَّست الأحجار المتساقطة من الصخور، وشكلت سطحًا ضحلًا.

على بعد أمتار قليلة من بيتنا، يوجد ممر صغير، يسير بنا عبر غابة كثيفة، تملؤها الطحالب وأشجار الصنوبر. وعلى طول الطريق، توجد ستة بيوت متشابهة؛ لونها أبيض، وسقفها قرميدي أحمر اللون على شكل مثلث، ونوافذها خشبية، ويُحيطها سور خشبي، ومن خلفه أشجار مُكدَّسة، تحجب الرؤية إلى الداخل.

عندما أتمشى هناك في فترة الظهيرة، تتسلل إلى مسامعي أصوات أدوات المطبخ، خاصة عندما تكون النوافذ مفتوحة، كما أنني دائمًا ما أسمع صوت الأطفال وهم يلعبون في الفناء. وعندما يتقابل سكان المنطقة على الطريق، يتبادلون التحية، مع بضع عبارات مقتضبة.

⌘⌘

بعدما وضعتَ آخر صندوق على الأرض، أغلقتَ باب بيتنا. ها نحن ذا في بيتنا الجديد، حيث تكدسَّت من حولنا عدة صناديق، وألواح خشبية، وقطع أثاث متفرقة. كنا بالكاد نستطيع أن نتحرك. أحضرتَ من الطابق السفلي زجاجة بيرة لك، وزجاجة صودا لي، ثم جلستَ على أحد الصناديق، وتنفستَ الصعداء قائلًا:

– تم بحمد الله! فلنترك الأغراض كما هي اليوم. وسأُنهي كافة الترتيبات مع أبي في إجازة نهاية الأسبوع.

أَدرتُ الراديو، ثم جلستُ بجوارك، فقلت لي:

– سينتهي كل شيء بسرعة، أكثر مما تظنين. لا أريدكِ أن تُشغلي بالك بهذا الأمر.

– أنا لم أقل شيئًا. إنني فقط متعبة!

وضعتَ زجاجة البيرة جانبًا، ونهضتَ من مكانك، ثم رفعتَ صوت الموسيقى، حتى تردد صدى أغنية "ليني كرافيتز" في أرجاء البيت. قلت لي:

– تعالي، ارقصي معي!

ثم وضعتَ ذراعيك حول رقبتي. كان بطني كبيرًا جدًا، لدرجة أنني اضطررت أن أُدير جسدي جانبًا. قلتُ لك:

– يروقني المكان!

– وأنا أيضًا!

قضينا ليلتنا الأولى على المرتبة، حيث تسلل الهواء إلينا عبر النافذة. سرعان ما رُحتَ في النوم، فقد كنتَ متعبًا من فرط المجهود الذي بذلته طوال اليوم. أما أنا، فظللتُ مستيقظة، أتأمل ضوء القمر، الذي طل علينا عبر النافذة. كانت رائحة الغرفة غريبة بالنسبة لي، فقد كانت معبأة برائحة الخشب والبلاستيك. نهضتُ من مكاني، وفتحتُ باب الشرفة بهدوء، فوجدتُ القمر يغمر الطبيعة بضوء غريب، وسط رذاذ المطر، بينما

برزتْ الجبال من فوقي بشكل حاد، وكأنها تُهددني. وفجأة، اندفعتْ سحابة فوق القمر، فاكتنف الظلام المكان، وبدا كل شيء أسود.

منذ ملايين السنين، كان هذا المكان كله يرقد تحت الماء، ولم تكن تلك الجبال سوى شعاب مرجانية ضخمة. فحتى يومنا هذا، لا تزال توجد فوق الجبال عديدٌ من أصداف البحر المتحجرة.

⌘⌘

كان سطح المنزل لا يزال قيد الترميم، ويحتاج إلى بضعة أشهر حتى ينتهي. استلمنا أغلب قطع الأثاث، ولم يتبقَ سوى بعض الخزائن، وأجزاءٌ من المطبخ. فاحت روائح الجير، والورنيش، والأثاث، والخشب في أرجاء البيت، لدرجة أنني كنت أتنفس بصعوبة. ولكنه بدا مثلما تخيلته تمامًا، وكأنه صورة من أحد كتالوجات الأثاث، حيث لمعت الأرضيات، وبرقت مقابض الأبواب، وبدت كافة التفاصيل مثالية. ولكن الأريكة البرتقالية لم تتماشى مع المكان على الإطلاق، كما كانت توجد بعض المشاكل في المطبخ والأرضيات، ولكنها أمور طبيعية.

وقفتُ في حجرة المعيشة أتأمل الأثاث؛ بلغ سعر مائدة الطعام ألف يورو، والأريكة ألفي يورو، و"الباركيه" خمسة آلاف يورو، ولوحة "التيوليب" مائتي يورو، أما السجادة، فاشترتها لنا والدتك. بدا كل شيء جميلًا، وحديثًا، وباهظ الثمن.

ترى كيف تبدو شقة أمي؟ هل لديها لوحات على الجدران؟

صارت أمي مجرد تمثال في ذاكرتي، فعندما أستحضر ملامحها، أراها جامدة وبلا حياة. لم أعد أتذكر حركاتها، ولا ضحكاتها، ولا طريقة كلامها. صارت ذكرياتي عنها مشوشة تمامًا. لعلها تعيش الآن في أحد الأحياء الصغيرة، على بعد خمسمائة كيلومترٍ من بيتي الجديد، حيث تقطن في شقة صغيرة، وتعمل بأحد الفنادق. لا أعتقد أنها أنجبت من بعدي، ولكنها بالتأكيد مرتبطة برجل آخر.

⌘⌘

بعدما استلمنا بقية الأثاث، جلستَ على الأرض في حجرة النوم، تحاول تركيب خزانتنا. وبينما علا صوت المثقاب، سمعتُ رنينًا صاخبًا، وكأن شيئًا قد سقط على الأرض، ثم سمعتك تسُبُّ بصوت عالٍ، فدخلتُ إليك في الحجرة، وسألتك:

– هل تحتاج إلى المساعدة؟

– كلا! استلقي على السرير. سأُنْهي كل شيء.

– سأحمل لك اللوح، وأضعه أمامك.. هكذا أسهل!

– اتركيه من فضلك، فأنا أتَّبِع أسلوبًا معينًا فى التركيب!

⌘⌘

صرنا جزءًا من مجتمع جديد، يُقيِّمنا، ويراقب طريقة حياتنا، ويدرس إيقاعنا اليومي. كان عليّ أن أعتاد تلك الأجواء. فحالما انتقلنا إلى البيت، أغدقونا بالهدايا والحلوى، حتى ندعوهم إلى بيتنا، ويتسنى لهم زيارته.

شكوْتَ لي منهم قائلًا:

– كم هم فضوليون!

كلما تركتُ البيت، وجدتُ أعينهم تراقبني. شعرتُ أنني محاصرة بمقتحمي الخصوصية، ما بين جيراننا في الخارج، ووالديك في الطابق السفلي. فوالدتك دائمًا ما كانت تقول لي: "ناديني إن احتجتِ لأي شيء، ستجدينني على الفور!"

⌘⌘

أقمنا احتفالًا بمناسبة انتقالنا إلى البيت الجديد. وقف أصدقاؤنا حاملين كؤوس النبيذ، يتفحصون الأثاث، و"الباركيه"، والنوافذ. ذهبتَ مع بعض أصدقائك إلى السطح، بينما أخذتُ بقية الضيوف في جولة حول البيت. بدت "مارلينا" في غاية الحماس، وقالت:

– لطالما حلمتُ بغرفة أطفال كهذه.

ثم تبعتها "آنا" قائلة:

– إنها حقًا غرفة جميلة، لماذا لم تسكنا معًا منذ عدة سنوات؟

وبعدها، وقفوا في الردهة أمام لوحتي، يتأملون الأمواج، التي تتلألأ بكل درجات الأزرق، بينما يلمع سطح البحر مع الضوء. سألتني "آنا":

– هل رسمتِ هذه اللوحة بنفسك؟ لم أكن أعرف أنكِ رسامة!

وبعد ذلك، وقفتُ مع "أليكس" وحدنا في التراس، بينما دخَّنَتْ سيجارتين متتاليتين، وشربَتْ كأسها دفعة واحدة. بدا صوتها مهمومًا، حيث قالت لي:

– كم هو شعور رائع أن أغادر البيت، حتى ولو لمرة واحدة! إن المكان هنا حقًا بديع.

– ألا تخرجين كثيرًا؟

– آه يا "آندي".. أرجوكِ، دعينا لا نتحدث حول هذا الموضوع!

ثم رمقتني بنظرات ثاقبة، وسألتني:

– ألا تفتقدين عملك؟

بدا وجهها شاحبًا، وزوايا فمها متدلية، وعيناها فارغتين. قلتُ لها:

– بالطبع!

ثم نظرتُ إلى أكوام الرمل المتكدسة في زاوية الحديقة، فقالت لي:

– عندما يكبر الطفل، يمكنكما بناء أرجوحة ومزلاق هنا في الحديقة.. أتعلمين يا "آندي"، أحيانًا أشعر بالفراغ!

– أليس بإمكانك أن تعودي إلى العمل متى تشائين؟

– نعم، ولكني لن أستعيد منصبي مرة أخرى. فقد كنتُ أتولى منصبًا إداريًا، وكنت حقًا مخلصة في عملي، بل كنت على وشك الحصول على ترقية. ولكن الآن... لا أعلم، ربما يمكنني العودة إلى العمل بدوام جزئي... لعلهم سيجدون شيئًا مناسبًا لي.

- ألا يمكن أن يحصل "باول" على إجازة لمدة عام لرعاية الأبناء؟

- لقد تحدثنا بالفعل حول هذا الموضوع. ولكنه إذا حصل على إجازة طويلة، لن يستعيد وظيفته. لا تنسي أنه لم يحصل على شهادة البكالوريوس، ولن يجد وظيفة كهذه مرة أخرى... أحيانًا أسأل نفسي: "لماذا أعيش هذه الحياة؟"

- تريَّثي، ولنرَ معًا ما تخبئّه لنا السنوات.. لندخل، فأنا أشعر بالبرودة.

⌘⌘

في الصباح، طرقتْ والدتك الباب، وسألتنا:

- أترغبان في تناول الغداء معنا؟ سيعود والدك إلى البيت لمدة ساعة واحدة فقط.

بمجرد أن دخل والدك البيت، غرفَتْ لنا الطعام في الصحون. وما إن خلع حذاءه، حتى كان بخار الطعام يتصاعد في الهواء. كلما عرضتُ عليها المساعدة، رفضتْ، وكلما أراد والدك شيئًا، أحضرته بنفسها. وبينما تناولنا القهوة التي أعدتها لنا بعد الطعام، كانت هي تغسل الصحون. قالت لي:

- لا ترهقي نفسك، ولا تتحركي كثيرًا. إنك مثل حماكِ، فكلاكما لا تنفذان نصائح الطبيب.

فقال والدك:

- يا "آندي"، لا يجوز أن تستخفِّي بالحمل.

⌘⌘

يقع سوق القرية على بعد عشر دقائق بالسيارة. وهناك، يوجد مخبز، وسوبرماركت، بالإضافة إلى فندق صغير، يقطن فيه كبار السن من رجال القرية، حيث يشربون النبيذ الأحمر، ويلعبون الورق. فهم يجلسون أمام الطاولات على مدار الأسبوع، بينما ينضم إليهم الآباء الشباب في عطلات نهاية الأسبوع، ليقضوا معهم بضع ساعات، حتى يحين موعد الغداء، فيعودون إلى زوجاتهم وأبنائهم.

وعلى الرغم من أن سكان القرية يتجنبون الخوض في الأمور الدينية والسياسية، فإن المواضيع السياسية تطغى على تلك اللقاءات داخل الفندق، حيث يتبادلون عبارات من قبيل: "لا بد أن نتَّخِذ موقفًا حاسمًا"، "لقد حان الوقت لنضع حدًا لبعض الأمور"، "إلى أين نحن ذاهبون؟"، "علينا أن نلتفت لأنفسنا".

يتشكل ضمير "نحن" مني أنا وأنت، أو أنا وأنت وطفلنا، أو أنا وأنت وطفلنا ووالديك. علينا أولًا أن نلتفت إلى أنفسنا، ثم إلى والديك، ثم إلى الآخرين. فضمير "نحن" يشمل أيضًا سكان البيوت الستة، التي تقع في شارعنا. فـ"نحن" نتصدى معًا لإدارة القرية، عندما يُغيِّرون خطوط هواتفنا، ويرصفون طرقًا جديدة في الغابة.

كما أن ضمير "نحن" يشمل أيضًا بقية سكان القرية، والوادي، والولاية، والدولة بأسرها، بالإضافة إلى الناطقين بلغتنا.

⌘⌘

في أحد الأيام، بعدما عدتَ مع والدك من أحد تلك اللقاءات بالفندق، لاحظتُ عليك بعض التغيير. فقد أخذتَ تردد عبارات من قبيل: "لا يجوز أن تستمر الأوضاع على هذا المنوال"، "كيف يفترض بنا أن نربي طفلنا هنا؟"، "يجب أن نتخذ موقفًا جادًا!"

وجدتك تتحدث عن الحدود التي لا بد أن نضعها، وتشكو من تدفق المهاجرين، والوظائف التي يشغلونها، وتتحدث عن خصخصة الإسكان الاجتماعي، بل وحتى عن الرجال الذين يتخلون عن زوجاتهم وأبنائهم، وكأنك مررت بتلك التجارب كلها.

لا شك أن المكان ترك أثرًا دفينًا في نفسك. فقد صرتَ تتحدث مثلهم، واقتبستَ المصطلحات التي يرددونها، وتبنَّيْتَ إيماءاتهم ونبرة صوتهم.

ذات مرة، قلت لي:

– لا يجوز أن نكون ساذجين هكذا. خاصة الآن، بعدما صارت لدينا عائلة، يتعيَّن علينا حمايتها.. فنحن لدينا منزل وسيارتان وطفل.

⌘⌘

نما بطني بسرعة كبيرة، وبدا ككرة ضخمة. فكلما حاولتُ أن أربط حذائي، وقف في طريقي. كما ضاقتْ جميع ملابسي؛ ستراتي، وكنزاتي، وأحذيتي، والجينز. حتى صعود السلم بات أمرًا في غاية الصعوبة.

عندما أقف، يؤلمني ظهري، وعندما أنام، يؤلمني بطني. تورَّمتْ يداي وقدماي، وكان لا يزال أمامي ستة أسابيع. قلَّت حركات طفلي، وصار بطني ضيقًا عليه. فولادته الآن ليست خطرًا على حياته.

⌘⌘

منذ انتقالي إلى بيتي الجديد، صرت كثيرًا ما أتقابل مع "أليكس". فقد عرَّفتني على أمهات أخريات، وصرنا كثيرًا ما نلتقي صباحًا في المقاهى، حيث يأتيَّن مع عربات الأطفال، وأنا مع بطني. كنا نشرب الشاي معًا ونتحدث عن أزواجنا، ويتحدثن عن أبنائهن، ويتناقشن حول الرضاعة، وأطعمة الأطفال، ثم يحكين لي عن أطبائهن، بينما تتداخل أصواتهن، ويتردد صدى ضحكاتهن في أرجاء المكان.

دائمًا ما أجد في تلك المقاهى إما أمهات أخريات، أو كبار السن من الرجال والنساء. أما الشباب، فينتظرون قهوتهم، ثم يرحلون إلى عملهم على الفور.

قالت "أليكس":

– إنكِ كثيرة الشكوى. كوني إيجابية ولو لمرة واحدة. ستكون الأمور في غاية البساطة. لم يتبقَ سوى بضعة أسابيع، ألا يمكنك أن تهدئي، وتعطي لنفسك فرصة للسعادة؟

وافقت الأخريات على كلامها، وطلبن مني أن أكبح جماح نفسي، وأن أفكر في طفلي، لأنه يشعر بتقلباتي المزاجية. وأكدن لي أن مخاوفي كلها ستختفي بعد الولادة!

⌘⌘

جلسنا مع جاريْنا في الحديقة، فقد جاءا إلينا بعدما تركا أبنائهما مع الأجداد. كان الجو باردًا في الصباح، ولكن الشمس سرعان ما سطعت مع

حلول الظهيرة. قدمنا لهما الطعام والشراب في صحوننا وكؤوسنا الجديدة. وعندما بدأت تمطر، فتحنا المظلة.

تحدث الضيفان عن جيراننا بصوت خافت، وحكيا لنا عن السُكارى الذين يسكنون على بعد بيتين، وعن الرجل المجنون الذي يقطن في القرية المجاورة. أخذتم تتناولون زجاجة نبيذ تلو الأخرى، حتى ازرقَّت شفتاك، وازداد صخب الأجواء. اشتكيا هما أيضًا من تدفق المهاجرين، ورددا العبارات نفسها المتداولة بين سكان القرية، ولكنك أخيرًا غيَّرت الموضوع قائلًا:

– أتعجب من غزارة الأمطار، فهي لا تتوقف!

⌘⌘

كالعادة، ذهبتَ إلى عملك، بينما قمتُ بالتسوُّق، وترتيب البيت، وتنظيف الأرضيات، والنوافذ. وعندما عدتَ إلى البيت، وجدتَ الطعام جاهزًا على المائدة. فبمجرد ما سمعتُ صوت المفتاح في القفل، غرفتُ الطعام في الصحون على الفور. وبينما خلعتَ حذاءك، سألتكَ:

– كيف كان يومك؟

– نزاعات كثيرة، وعُجالة من موعد إلى آخر.

ثم عانقتني، وأعطيتني قبلة خاطفة. ولكنك لم تسألني عن يومي، لأنك افترضت أنه لم تطرأ عليه أي أحداث مهمة. أخذتَ تحكي لي عن مديرك، الذي يقلب خطط البناء رأسًا على عقب. وقلت لي:

– طفح الكيل! إنه غير كُفء على الإطلاق. كيف جعلوه مديرًا للشركة؟

كالعادة؛ أنت صائب، وهم مخطئون.. أنت الأكفأ، وجميع المهندسين المعماريين، وعمال البناء، بل وحتى مديرك، ليسوا على القدر نفسه من الكفاءة التي أنت عليها.

وبينما استطردتَ في تفاصيل حوارك مع المدير، وكررت شكواك، وذكرت عدة أمثلة تُثبت عدم كفاءته، شردتُ بأفكاري، وأخذتُ أستحضر تفاصيل الساعات الماضية من يومي: فقد وقفتُ في السوبرماركت بضع دقائق كي أختار نوع الرز الذي أريده، ثم صنَّفتُ الغسيل، وفصلتُ الملابس الملونة عن البيضاء، وبعدها علقتُ جواربك وثيابك بعناية، حتى لا تتجعد، ثم غسلتُ الصحون، واحتسيتُ مع والدتك كوبًا من الشاي في المطبخ. فبينما كان الجميع في مكاتبهم، كنتُ في البيت، أراقب الساعة وأنتظرك.

نظرتُ إليك، وأنت تتناول طعامك، واختفت في فمك قطعة لحم تلو الأخرى. وجدتني أفكر في أيامي القادمة، وفي هذا البيت، وفي والدتك، وفي نفسي!

قلتَ لي:

- لماذا لا تستلقين على السرير يا "آندي"؟ لماذا تذهبين إلى التسوق وتُنظِّفين البيت كل يوم؟ لقد نصحتكِ الطبيبة أن تأخذي الأمور برويِّة. دعي أمي تساعدك، فليس عليكِ أن تفعلي كل شيء بنفسك.

⌘⌘

عندما عدتُ إلى البيت ذات يوم، وضعتُ المفتاح في القفل، ولكنه لم يكن مغلقًا. ففتحتُ الباب، ووجدتُ حذاء والدتك في المدخل، وبجواره حقيبة تسوق. وبعد أن علقتُ معطفي، سمعتها تناديني من الحمام، قائلة:

- مرحبًا!

تخلل صوتها الودود نبرة توبيخ، لأنني خرجتُ من البيت. ثم استطردتْ قائلة:

- ها أنتِ ذا أخيرًا!

ذهبتُ إليها في الحمام، واتكأتُ على الباب. فقد كنتُ أشعر بدوار شديد، وصداع مبرح. كان بطني ثقيلًا عليّ، وأردتُ أن أستلقي على السرير. سألتها:

- ماذا تفعلين؟

- أنظف.

كانت راكعة على الأرض، وبجوارها دلو من الماء، تطفو عليه ممسحة ملونة. كانت تدعك أصغر البقع بكل قوتها، بعد أن شمرت عن ساعديها ورفعت شعرها بمشبك. ابيضت مفاصل أصابعها، وتصبب جبينها عرقًا. قلت لها:

- ليس عليك القيام بذلك.

- سبق وأن قلتُ لكِ أنك ستجدينني متى احتجتِ إلى المساعدة.

ازداد شعوري بالدوار، فتركتها دون أن أقول شيئًا. تسللتْ إلى أذني أصوات تناثر الماء، واحتكاك الممسحة بالأسطح، كما سمعتُ أنفاسها ولهاثها. ولكني لم أطلب منها أن تنظف البيت هكذا.

وما إن استلقيت على الأريكة، حتى وجدتُ في حجرة المعيشة كومة من الملابس. فقد قامت بكيّ ثيابنا وطَيِّها. آلمتني رأسي، وشعرتُ أن قدميّ ثقيلتان، فبللتُ قطعة من القماش بماء بارد، ثم تركتها على جبيني. وما

إن أغمضتُ عيني، حتى أتتْ والدتك إلى حجرة المعيشة. كانت تركل الأرض بكعبيها، لدرجة أن الكؤوس الموجودة في الخزانة ارتجت. سألتني:

- هل أنتِ بخير؟

راقبتها وهي تحمل النباتات من عتبات النوافذ، ووضعتْها على الأرض، ثم استخدمتْ منفضة من الريش لإزالة الغبار من النوافذ، لتمسحها بعد ذلك بالماء. انتشرتْ رائحة المطهر، وامتزجتْ برائحة عطرها الحلوة.

وبعد أن أزالت الغبار من النباتات، أعادتها إلى مكانها مرة أخرى، ورتبتها حسب لون الوعاء. لم أرَ في حياتي منفضة الريش من قبل، ولم أشترِ أبدًا هذا المطهر، فقد أحضرتْ معها أدوات التنظيف الخاصة بها.

منذ أن انتقلنا إلى بيتنا، ازدادت انتقادات والدتك لي، فقد قالتْ لي ذات مرة:

- لماذا لا تشترين حقيبة يد جديدة؟ انظري إلى حقيبتك المتهالكة!

وفي مرة أخرى، قالت لي:

- لماذا لا تذهبين إلى مصفف الشعر؟ فأنتِ تحتاجين إلى صبغ جذور شعرك.

كما انتقدتْ حذائي، لأنه رياضي، وأقراطي، لأنها تبدو رخيصة، وقمصاني، لأنها مجعدة، ومحفظتي، لأنها كبيرة، وها هي الآن تنصحني بتغيير مساحيق التنظيف التي أستخدمها. وعندما خرجتْ من الحجرة، رمقتني بنظرة توبيخ، لأنني ظللت مستلقية على الأريكة ولم أساعدها. ولكني كنت أشعر بتقلصات شديدة في بطني، وألم في رأسي. أردت أن

أصرخ فيها قائلة: "اخرجي من بيتي.. ارحلي من هنا ودعيني وشأني!"، ولكني وجدت نفسي أقول:

– لقد نسيتِ تنظيف التليفزيون!

⌘⌘

في الليل، يعم الهدوء أرجاء البيت، ولا تتسلل إلينا أي أصوات من الخارج، فلا توجد سيارات ولا مارة!

لم يملأ حجرتنا سوى صوت أنفاسك، فقد كانت عميقة ومنتظمة. وبينما ارتفع صدرك وهبط، ظللت أُحدِّق في السقف، وشعرتُ أنه يقترب مني أكثر فأكثر. وفجأة، شعرتُ بشح الهواء، وكأنك امتصصت كل الأكسجين من الغرفة. أحاطتْ الجدران بسريرنا، وبدتْ الغرفة مختلفة في الظلام، شعرتُ أن الملابس والصناديق تحوَّلتْ إلى شخصيات تراقبني.

صرنا لا نتلامس في أثناء النوم، ولم تعد تظهر لي في أحلامي!

⌘⌘

كانت الأيام رمادية، وتساقطت الأمطار كل يوم؛ مرات تهطُل بغزارة، ومرات تتوقف لبضع ساعات، ومرات لا يتساقط سوى رذاذ خفيف، فتبتل معه أوراق الشجر. تشكَّلتْ برك صغيرة في أرجاء الغابة، وتدفَّقتْ مجاري الماء عبر شارعنا.

رأيتُ بقعة داكنة على الحائط في حجرة المعيشة. ثم اكتشفتُ أنه يوجد تسريب في السقف، يمتد عبر الحائط، ويصل إلى الأرض، حيث تشكلتْ

بركة ماء صغيرة، وأخذت تتوسع ببطء. دهستها بقدمي، فتناثرت قطرات الماء الباردة من حولي.

كنتُ أعلم أنك ستغضب عندما تعود إلى البيت، وتقول:

– هؤلاء العمال لا يمكنهم أن يفعلوا أي شيء، مهما كان بسيطًا.. ماذا تفعلين؟ أتنتظرين أن يزداد الأمر سوءًا؟ سوف تتعفن الأرضية مع استقرار الماء فوقها، وأنتِ تشاهدينها دون تصرف؟

أخذتُ أتفحص بقية الجدران، بينما لمع انعكاس خطواتي المبتلة مع الضوء. لاحظتُ تسريبًا آخر يمتد عبر الحائط من الناحية الأخرى، كما تساقطت قطرات الماء على الأرض ببطء، وشكَّلت بركة جديدة.

تدفقت البركتان الصغيرتان في اتجاه بعضهما بعضًا. قفزتُ على الماء برفق، ثم أخذت أقفز أعلى وأعلى، حتى تناثرتْ القطرات على الجدران، بينما اصطدمتْ الرياح بالأشجار، وقرعَ المطر على النوافذ.

⌘⌘

سألَتني مختصة التوليد:

– ماذا تعرفين عن الولادة؟

فكرتُ في الإجابة، ولكني لا أفقه شيئًا حول الولادة، فأمي لم تحكِ لي أية تفاصيل.. ها أنا ذا مرة أخرى أشعر بفجوة جديدة في حياتي بسبب رحيلها. أجبتُها:

– لا أعرف شيئًا!

فقالت:

- من المهم أن تُثقِّفي نفسك حول تلك التجربة، لأنها ستترك في نفسك أثرًا دفينًا حتى نهاية العمر. ولكن لا تقلقي، فإن رحمك مثالي للولادة، وقد حان الآن وقت الانتظار والترقب. تعالي إلينا إذا استمرت التقلصات لمدة دقيقة متواصلة. وإن شعرتِ بالطلق، عليكِ أن تظلي مستلقية.

حرصتُ على مشاهدة بعض مقاطع الولادة، لكي أستعد للتجربة. شاهدتُ مقطعًا لأمٍ تتلوى فوق كرسي الولادة، ومع كل تقلص تصرخ وتبكي من شدة الألم. كانت تقول:

- لم أعد أقدر على تحمل الألم. أحتاج إلى مسكنات. أرجوكم أعطوني مسكنات!

فقالت لها الطبيبة:

- ادفعي.. ادفعي بقوة، وسوف ينتهي كل شيء!

وبالفعل، حملت الطبيبة طفلًا أزرق، وملطخًا بالدم. وبعدها، قطع الأب الحبل السري، ثم وضعتْ الطبيبة المولود على صدر أمه المنهكة.

شاهدت مقطعًا آخر لأم في حجرة العمليات، يشُق الأطباء بطنها بأدوات معدنية، ثم يفتحون الرحم. وبعدها، أمسك أحد الأطباء بالطفل، وشده إلى الخارج، ثم قطع الأب الحبل السري وحمل طفله ليضعه إلى جانب رأس الأم.

الولادة المبكرة تصيبنا بالخوف من الفراق، والولادة العجولة تصيبنا بالاكتئاب، والولادة القيصرية تسبب بعض المشاكل في التنفس، والولادة بالملقط تنمي فينا روح المثابرة. لذا، علينا أن نُقبل على الولادة ونحن مستعدون لكافة التفاصيل والاحتمالات..

يمكن لأي شيء أن يحدث، وليكن ما يكون!

المجيء المقعدي، واستلقاء الجنين على الجنب، وتمزُّق العجان، وضيق التنفس، والسكتة الدماغية، وضعف القلب، والنزيف الحاد، وموت الجنين، والتثلث الصبغي، والسكتة القلبية، والولادة المتعسرة، وتسمم الحمل، وانفصال المشيمة، والولادة المبكرة، والولادة العجولة، والولادة بجهاز الشفط، والولادة القيصرية، والتفاف الحبل السري حول رقبة الجنين؛ كلها سيناريوهات واردة ومحتملة!

⌘⌘

صرتُ أحلم بالولادة كل ليلة. أرى نفسي أدفع وأدفع، ولكن طفلي يظل عالقًا في الرحم. فتقول الطبيبة:

– هيا.. ادفعي! الأمر ليس بتلك الصعوبة!

ثم أراك ممسكًا بيدي، وتقول:

– ادفعي يا "آندي".. ادفعي بقوة.

بينما تقف والدتك على الناحية الأخرى، وتقول:

– لم يكن الأمر بتلك الصعوبة عندما أنجبت أبنائي.

ومن خلفك يقف والدك، واضعًا يديه على وجهه قائلًا:

- لا أقدر على تحمل المشهد!

وفي نهاية الحجرة، يقف "دانيال" مع "آنا"، ويقولان:

- إنها فتاة بالتأكيد!

ثم أجد زميلاتي في العمل "ساندرا" و"ريتا"، وصديقاتي من المدرسة، جميعهن يقلن لي:

- هيا! لقد صرتِ على وشك الانتهاء. استجمعي قوتك!

تتعالى الأصوات وتتداخل من عدة نواحي.. يقف الجميع من حولي، ويحتشدون في الحجرة، بينما يضحكون ويصرخون ويتناقشون.. هناك من لا أعرفهم من الأساس.. البعض يُمسك بيدي، والبعض يمسح العرق من وجهي، والبعض يربت على ساقي، أو رأسي. تعالت صرخاتي، لدرجة أنني لم أعد أسمعهم. ولكني لم أعد أشعر بأي تقلصات، فسألتني الطبيبة:

- ماذا دهاكِ؟

⌘⌘

قرأتُ مقالة بعنوان: "ثلاثون سببًا للإنجاب":

1- سأشعر بإصبع صغير يمسك بيدي.

2- سأشعر بالتعب أكثر من أي وقت مضى، ولكن الفرحة لن تسع قلبي.

3- سأستيقظ في منتصف الليل، كي أُرضع طفلي، وسأعلم أن ملايين الأمهات حول العالم يشاركنّني تلك اللحظة الجميلة.

4- سيهدأ طفلي، حالما يسمع صوتي.

5- سأنعم بلحظات من السلام، عندما ينام بين ذراعيّ.

6- سألتقي بعدة أمهات أخريات، ولن يمللن من قصة ولادتي، مهما حكيتها.

7- سأستنشق أفضل رائحة في العالم.

8- سأجري محادثات جادة حول ماركات الحفاضات.

9- سأضحك كما لم أضحك من قبل، فضحكات الأطفال مُعدية.

10- سأخترع مع زوجي لغة عائلية جديدة.

11- سأستمتع بالاستلقاء على الفراش مع زوجي وطفلي.

12- سأستكشف مع زوجي جسد طفلنا، لكي نحدد معًا، ممن أخذ أنفه وأذنيه وأصابع قدميه.

13- سأعرف أن هناك من يثق بي تمامًا.

14- سأفكر في تركيبات جديدة للطعام؛ الكمثرى مع الأفوكادو، والسبانخ مع الدجاج، واليقطين مع العدس.

15- سأتعهد بأن أكون أفضل من والديّ.

16- سأنبهر معه بأبسط الأمور؛ بطعم الليمون، ورائحة التبن الطازج، وطنين النحل، والعشب بين أصابع القدم.

17- سأبكي، كلما أشاهد مقاطع الولادة في التليفزيون.

18- سيقول طفلي "ماما" لأول مرة، وبعد لحظات سأدرك أنه يقصدني "أنا".

19- سأتصرف بجنون؛ سأغيِّر تعبيرات وجهي، وسأصهل مثل الحصان، وسأفعل أي شيء، فقط كي يضحك طفلي.

20- سأجد حجة لقراءة كتب الأطفال.

21- سأفكر في إجابات لأسئلة وجودية من قبيل: "لماذا الشمس صفراء اللون؟"، و"لماذا لا بد أن ينام الأطفال؟"

22- سأقوم بتأليف القصص.

23- سأعتاد على لقب: "أم فُلان".

24- سأتعلم أن أخبز العجين بيدي اليمنى، وألصق ضمادة على إصبع طفلي بيدي اليسرى، بينما أتحدث عبر الهاتف في الوقت نفسه.

25- سأكوِّن صداقات جديدة مع آباء وأمهات آخرين.

26- سأنقل إلى طفلي أهم القيم والمبادئ؛ مثل الصدق، والأدب، والاجتهاد.

27- سأبكي عندما آخذ طفلي إلى روضة الأطفال لأول مرة، وسأفخر به عندما أدرك أنه لم يفتقدني.

28- سأرى العالم بعيون الأطفال.

29- سأدرك أنه ورث حبي للفن، وعشقك للمعمار.

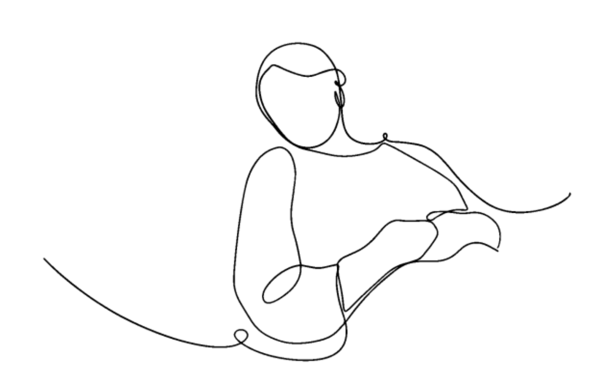
30- سيذوب قلبي من ضآلة حجمه.

⌘⌘

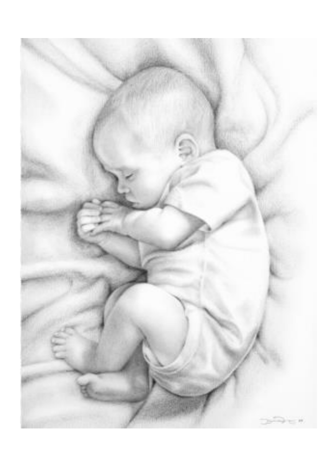
مالت بي الأرض، بينما مشيْتُ وحدي في الردهة. اضطررتُ أن أقف كي أستعيد توازني. وعندما اتكأتُ على الجدار، شعرتُ أنه يتحرك، وكأن هناك زلزال، أو كأنني على متن سفينة.

"جورج!"

أطلقتُ صرختي عبر السلم، ولكنها ضاعت في الخلاء.. لا أحد معي.. كنتُ وحدي.



الفصل التاسع



يقولون إن الماء أقدم من الشمس، وإن كوكب الأرض كان محيطًا ضخمًا من الصخور السائلة. وبعد ذلك، برد السطح، فتشكلت قشرة رقيقة، تسربت منها الغازات. وبعدها، تكثَّف بخار الماء، فبدأ هطول الأمطار. ومع مرور ملايين السنين، تشكَّلت برك صغيرة، ثم تحولت إلى بحار ومحيطات ضخمة.

منذ أيام، وأنا لا أشعر بأي حركة في بطني. وكأن طفلي لم يعد له وجود، أو كأن السائل الأمنيوسي ابتلعه، أو أذابه. صار الرحم ضيقًا عليه،

لدرجة أنه اضطر أن يضع ذراعيه فوق بطنه، ويثني ساقيه. لقد اقترب موعد وصوله، ولم يتبقَ سوى بضع أسابيع أخيرة.

⌘⌘

ذهبنا إلى المستشفى، حيث دوت صرخات الأمهات عبر جدران غرف الولادة. قالت لنا الطبيبة:

– لا يمكننا التنبؤ بمدى ازدحام اليوم. مرات نستضيف عدة حالات، ومرات أخرى لا نجد سوى حالة واحدة فقط في الجناح بأسره..

وقفنا مع آباء وأمهات آخرين على مشارف الولادة، وتبادلنا الابتسامات؛ أعتقد أنها كانت ابتسامات الخوف، أو ربما الخجل. بدتْ ملامح القلق على الآباء، حتى أنتَ، أمسكتَ بيدي، وضغطتَ عليها بقوة.

هناك اختلافات ثقافية كبيرة في طقوس الولادة: فالمرأة اليابانية لا تصرخ، بعكس المرأة التركية التي تصيح بصخب. فكلما علا صراخها، كلما أهداها زوجها مجوهرات أكثر.. أما المرأة المغربية، فهي تحاول أن تقاوم آلامها بِعَضْ شعرها؛ تمامًا مثل المرأة المصرية التي تضع قطعة من القماش بين أسنانها. وفي تايوان، لا يجوز إزعاج القرية. وفي الهند، يقيسون خطايا المرأة بدرجة آلامها، ويفتحون أبواب البيت في أثناء الولادة، بعكس المكسيك، حيث يُغلقون الأبواب والنوافذ، ويسِدُّون كافة الفراغات بِقِطَع من القماش، خوفًا من أن تتسلل الأرواح الشريرة إلى الأم، أو الطفل.

جلتُ ببصري في أرجاء غرفة الولادة، فوجدت سريرًا، وكرسي ودراجة، بالإضافة إلى حوض كبير، وبعض الحبال، وكرات الجلوس، وسلالم الحائط،

حتى شعرتُ أنني في صالة ألعاب رياضية للأطفال. تنوعتْ الألوان في المكان؛ حتى الجدران، كانت مطلية باللون الأرجواني، ووجدتُ فوق السرير صورة كبيرة لزهرة "النيلوفر". أخذتنا الطبيبة في جولة تعريفية بتلك الأجهزة والمعدات، فتخيلتُ نفسي مستلقية على السرير، أو جالسة فوق الدراجة، أو على الكرسي، أو مُتشبِّثة بالحبال، بينما أُحدِّق في زهرة "النيلوفر".. تخيلتُ نفسي أصرخ وأصيح، وأعض شعري.. تخيلتُ أنك تناولني قطعة من القماش، كي أضعها بين أسناني.. تخيلتُ أنني أمسك بيدك وأغرز أظافري في جلدك.. تخيلتُ أنني أتمزق، بعدما يخرج رأسه مني.. تخيلتُ أنني أتلوى على كرسي الولادة، وأتوسل الأطباء كي يعطوني مسكنَات للألم.. تخيلتُ الطبيبة وهي تضع طفلي على صدري.. تخيلتُ طبلة أذني وهي على وشك الانفجار.. تخيلتك وأنت تبتسم لي، بينما تقطع الحبل السري.

أخذتْ الطبيبة تشرح لنا تفاصيل تلك الأجهزة. بدت بشوشة، ولم تفارق الابتسامة وجهها. كانت حركات يدها مطَمْئِنَة، كما أنها استخدمت تعبيرات من قبيل "رأس صغير"، "وطفل صغير"، فأثلجت صدري، وطمأنتني بعض الشيء.

وقفنا جميعًا بجوار بعضنا بعضًا، نُنصتُ إليها بإمعان، ونطرح عليها الأسئلة. وبعدها، شرحت لنا تفاصيل الولادة في الماء، حيث قالت:

- لا توجد أي خطورة على الإطلاق! بل على النقيض؛ فالولادة في الماء تُمهِّد الطفل للأجواء الجديدة برفق. فعندما ينزلق من السائل الأمنيوسي إلى الماء، يكتم أنفاسه بتلقائية، ثم يستنشق الهواء حالما يخرج.

وبعد ذلك، تناوبنا الجلوس على كرسي الولادة، حتى نتعرف عليه أكثر، فيما جلس الأزواج من خلفنا.

عندما جاء دورنا، جلستَ من خلفي، ووضعتَ يديك على كتفيّ، بينما اتكأتُ عليك. وفي تلك اللحظة، دوت صرخة قوية من الغرفة المجاورة، فقد جاء مولود جديد إلى النور.

⌘⌘

راقبتُ الماء وهو يتدفق في حوض الاستحمام، بينما أصدر رغوة، وتصاعد منه البخار، وتسلل صوته إلى سائر أرجاء البيت. وعندما وطأُت بقدمي داخل الحوض، احمرَّت قدماي من سخونة الماء، ووصلتْ الحرارة إلى وجهي. بعدها، استلقيتُ على ظهري، وأخذتُ أنزلق أكثر فأكثر، حتى غطس رأسي. فأخذت أنصت إلى تدفق المياه الخافت، بينما تخللته أصواتٌ من شقة والديك. وفجأة، شعرتَ بطفلي يتحرك مرة أخرى، وكأنه سمكة صغيرة تسبح بحرية في أعماق البحر.

أغمضتُ عينيّ ووضعتَ يديّ على بطني، فرأيته أمامي؛ أنفه الصغير مستدير، وشعره أسود كثيف. شفته العليا تشبه الجبل، وتنكمش عندما ينام، وأصابع قدميه صغيرة للغاية. وعندما يضحك، يبدو مثلي. نظر إليّ، ثم أغمض عينيه.

⌘⌘

يقولون إن البحر لا يُسبر غوره، وإنه أغرب من القمر. فأعماق أعماقه شديدة الظلام والبرودة، تسكنها أسماكٌ صغيرة، إما شفافة، أو سوداء،

وتتمتع بعيونٍ ضخمة، كي تلتقط بقايا الضوء الخافتة. ففي تلك الأعماق الدفينة، يظل المكان والزمان معلقان.

⌘⌘

وضعتَ يدك على بطني الذي كان كالجبل الشامخ، وحمل داخله محيطًا دفينًا. سألتَ طفلنا:

- ألا تريد أن تخرج من هنا؟ نحن في انتظارك!

ثم استلقيتَ بجواري، ووضعتَ أذنك على بطني، قائلًا:

- تُرى كيف يبدو طفلنا؟

- ستراه بنفسك قريبًا!

كل من يراني، يسألني إن كنت أشعر بالخوف من الولادة. فأصدقائي، وجيراني، بل وحتى الأغراب، يقولون لي أن أغلب حالات الولادة تسير على ما يرام، ولكن الطلق يستمر لفترة طويلة، وآلامه مبرحة. وبعدها، يتحفونني بقصص مفزعة؛ "سمعنا عن ولادة استغرقت ثلاثين ساعة، وكان الأطباء على وشك إجراء عملية قيصرية طارئة".. "سمعنا عن ولادة عجولة، حيث انزلق الطفل في بئر السلم، وأمسك الأب برأسه".. "سمعنا عن أم أنجبت طفلها في سيارة الإسعاف".. "سمعنا عن طفل ظل عالقًا داخل الرحم لساعات، فاضطر الأطباء إلى استخدام جهاز الشفط، حيث قامت إحدى الطبيبات بالضغط على البطن، بينما قامت الثانية بشد الجنين، والثالثة بشق العِجان. وللأسف، خرج رأس الطفل مشوهًا، لدرجة أن الأب اعتقد أن طفله يعاني من مرض ما. ولكن لم يخبره أحد بما

حدث".. "سمعنا عن طفل لم يتلقَ القدر الكافي من الهواء، ولم يبكِ بعدما قلبه الأطباء لأنه أصيب بشلل نصفي".. "سمعنا عن طفل وُلد مصابًا بمشكلة في القلب، فكان لا بد وأن يخضع لعملية جراحية فور الولادة، وظل في المستشفى لعدة أسابيع".. "سمعنا عن طفل مات في بطن أمه في الشهر الأخير. وبعدها، شعرت الأم بطلق الولادة، وأنجبته ميتًا".. "سمعنا عن طفل التف حوله الحبل السري، فكاد أن يختنق".. "سمعنا عن أم فقدت وعيها في أثناء الولادة من فرط الألم".. "سمعنا عن أم كادت تنزف حتى الموت".. وغيرها وغيرها من القصص المرعبة!

⌘⌘

زرتُ زملائي في العمل. ولكن كلما التقيت بأحدهم، عانقني سريعًا ثم مضى في طريقه. وجدتُ مكتبي خاليًا، ورأيتُ المستندات الخاصة بعملائي على مائدة الاجتماعات، ولكن الألوان بدت باردة، والحروف قبيحة، ولم تتماشَ مع الصور على الإطلاق. لم أشعر بأي إبداع، فسألتهم:

- هل قمتم بتغيير التصميم؟

فقالوا لي:

- أراد العملاء أن يُجروا بعد التعديلات.

وإذا بالهاتف يرن، وجرس الباب يدق، بينما تحرك الزملاء من حولي في كل اتجاه، وكأنني أقف في طريقهم. قالت إحدى زميلاتي:

- اعذريني يا "آندي"، ولكنك جئتِ إلينا في يومٍ مزدحم للغاية.

⌘⌘

قررتُ أن أُعيد طلاء حجرة الطفل، فلم يعد يعجبني اللون الأصفر. أردتُ أن أطليها بأعمق درجات اللون الأزرق؛ لون المحيط. ولكني تركتُ السقف أبيض كما هو، حتى تبدوا الغرفة كحوض السمك.

وعلى مدار عدة أيام، رسمتُ الأسماك الصغيرة على الجدران بالقلم الرصاص، ثم طليتُها بألوان زاهية. كما رسمتُ بعض الأسماك المنتفخة، تشبه زعانفها أجنحة الفراشة، بالإضافة إلى أسماك أخرى بمختلف الأشكال والألوان، مع أخطبوط كبير، وعدد من نجوم البحر. تناثرت الشعاب المرجانية في جميع الجدران، وكذلك سمكة المهرج الشهيرة بلونيها البرتقالي والأبيض. وعندما انعكس ضوء السقف على الجدران، بدا وكأنه يتخلل المحيط.

بعدما انتهيتُ، أخذتُ أتأمل الجدران، وأمسح عليها بيدي، وكأنني ألامس الأسماك. كانت الحجرة ساكنة، وكأن المحيط الذي رسمته على الجدران عازلًا للصوت. استلقيتُ على السرير، وأشعلتُ المصباح، فأخذتْ النجوم تدور في سائر أرجاء الغرفة.

يقولون إن البحر له صوت. فعندما يعم السكون، يمكننا سماع غنائه.

⌘⌘

اخترنا اسم المولود. كان يرن في أذني طوال الوقت، وظللتُ أردده لنفسي، مرة بعد مرة. أخذتُ أهمس به، وأصرخ به، وأغني به، حتى صار فارغًا، وكأن حروفه سقطت من لساني، ثم تجزَّأتْ وتفكَّكتْ، كما تنهدم أبراج الأمل.

⌘⌘

عندما خلدتُ إلى النوم، استلقيتَ بجواري على السرير، وأخذتَ تمر بيدك على جسدي، فقلتُ لك:

– كلا! ليس الآن!

– لمَ لا؟

– ليس اليوم.. اتركني!

ثم أعطيتك ظهري، وسمعتك تلهث وتلتفت من ناحية إلى أخرى، دون أن تقول شيئًا. وعندما استيقظتُ في اليوم التالي، كنتَ قد ذهبتَ إلى العمل.

⌘⌘

علَّقنا على جدران بيتنا عدة صور، نظهر فيها كزوجين سعيدين؛ في الصورة الأولى، نتبادل ابتسامة، وفي الثانية، نتبادل قبلة، وفي الثالثة، نستلقي معًا على الشاطئ، بينما تسقط الشمس في البحر من خلفنا. عكستْ الصور مراحل عمرنا المختلفة؛ منذ السادسة عشر، والثامنة عشر، حتى السابعة والعشرين، والثلاثين، والخامسة والثلاثين؛ نظهر فيها ونحن نرقص في "الديسكو"، ونركب الدراجة البخارية، ونقف فوق قمة الألب، ونغوص تحت الماء، ونقفز إلى البحر من فوق صخرة عالية، ونرتدي الأزياء التنكرية، ونستلقي معًا على الأرجوحة الشبكية، ونحتسي الكوكتيل على الشاطئ. هناك أيضًا صورة لنا أمام مدرج "الكولوسيوم"، وأخرى في ساحة "سان مارك"، وأخرى أمام الكاتدرائية في "فلورنسا".

تغيرتْ ثيابنا وقصات شعرنا على مر السنين، فأنت الآن لم تعد ترتدي تي شيرتات عليها فِرَق "الروك"، بل أطلقتَ لحيتك، وصرتَ ترتدي القمصان، وتُصفِّفْ شعرك بطريقة رجولية. أما أنا، فلم أعد أرتدي الملابس السوداء، ولم أعد أصبغ شعري. لقد صرنا أكثر جدية، بعد أن تركت السنين آثارها على وجهينا. فقد ارتسمت التجاعيد الرفيعة حول الفم وعلى الجبين، وستظل تزداد سُمكًا مع مرور السنين.

⌘⌘

عندما كنتُ أتأمل لوحتي في الردهة، كنتُ أجد الأمواج تتحرك ببطء وتساوٍ ثم أشعر بصوت خافت، يأتي إليّ من بعيد. ولكن يومًا بعد يوم، تعالت الأصوات، وازدادت الأمواج، حتى صرتُ أشعر بارتفاعها وانخفاضها.

⌘⌘

كانت أعمال الطَرْق والحَفْر في طابق السطح تبدأ منذ الصباح الباكر، فتتسلل إلى مسامعي حالما أستيقظ، وتظل تدق في رأسي، وتقرع بالإيقاع نفسه. اخترقتني أصوات المطرقة، والكماشة، والمثقاب، وكأن العمال يزيلون السطح بأكمله.

ذات يوم، نهضتُ من السرير، وجلستُ في المطبخ مع فنجان من القهوة. ولكني شعرتُ بوخز سكين، يمتد من جبيني، ويمر برقبتي وظهري، حتى يصل إلى الحوض، حيث وصل الألم إلى ذروته. كان الجو في البيت باردًا، ولم تخِّف رائحة البلاستيك والطلاء. وما زاد الطين بلة، هو تناثُر الغبار على الأرض، بعدما اخترق البيت من أصغر الشقوق والفراغات.

لم أقدر على الرسم، ولا على الخروج، فقد كنت في غاية التعب. ولذلك، ظللت مستلقية على السرير، وسحبت الغطاء فوق رأسي. اخترق بطني ألمٌ حاد، لدرجة أنني شعرتُ أن طفلي ليس بخير. هل ما زال طفلي على قيد الحياة؟ لا بد أنها مجرد آلام طبيعية!

عدتَ إلى البيت حاملًا معك دبٌ فرو أبيض اللون، وصل طوله إلى خصري. قلتَ لي:

– كان لا بد أن أشتريه.. أمسكيه.. انظري كم هو ناعم!

فأخذتُه منك، ووضعتُه في غرفة الطفل. ولكنني دائمًا ما أشعر أنه يحدق بي، كلما مررت من جواره.

يقولون إن قاع البحر يُخفي في طياته كثيرًا من الوديان، والكهوف، والسلاسل الجبلية الضخمة، وكأنه عالم آخر لا نعرف عنه شيئًا.

عندما تعود إلى المنزل بعد العمل، كنتَ تتفقد طابق السطح، وتتحدث مع العمال، ثم تذهب إلى الحديقة، حيث تقوم بتقليع الحشائش، وتقليم الأشجار. أحيانًا تذهب إلى الفندق الصغير مع أصدقائك، وأحيانًا أخرى تمارس الرياضة. فقد بدأتَ دروس "الكاراتيه"، بعد أن شعرتَ أنك تحتاج إلى بعض التوازن في حياتك بسبب ضغوط العمل، والطفل، وترميم البيت. قلتَ لي ذات مرة:

– إنني أواجه عديدًا من الضغوطات.

فقلتُ لك:

– سرعان ما ستمضي تلك الفترة العصيبة!

– عليّ أن أستغل الوقت. فعندما يأتي طفلنا، لن أجد وقتًا للقاء الأصدقاء. أتريدين أن تأتي معي؟

– كلا! اذهب من دوني. فأنا بالكاد أستطيع أن أتحرك، ولا يمكنني أن أظل جالسة لفترة طويلة، ولا أستطيع أن أشرب أي شيء. لن تستمتع بصحبتي.

– ألن تستائي؟

– كلا! اذهب إلى أصدقائك، واستمتع بوقتك.

– حسنًا إذًا!

ثم قبلتني على جبيني قائلًا:

– سأراكِ لاحقًا!

استلقيتُ على الأريكة أمام التليفزيون، ولكني رحتُ في النوم، ولم أستيقظ إلا بعدما عدتَ إلى البيت.

⌘⌘

أحضرتْ والدتك أغراضك القديمة، مع بعض أغراض "دانيال"، وابنة أخيها، وغيرهما من المعارف. حيث وضعت في خزانة الطفل بطانية من الصوف، وشخليلة، وعدة سالوبيتات، وجوارب، وأحذية، وسترات، وقُبَّعات، وتي شيرتات، وبلوفرات، وشورتات، حتى امتلأت عن آخرها، وبالكاد صرنا نستطيع أن نغلقها. كما وضعتْ في المهد حيوانات فرو أخرى بجوار الدب؛ تنين، ونمر، وسمكة قرش.

قضيتُ أيامي في حالة تجوّل بين حجرات البيت؛ من غرفة النوم، إلى المطبخ، إلى غرفة المعيشة، إلى الشرفة، إلى الحمام، إلى المطبخ، إلى السلم، إلى السيارة، إلى السوبرماركت، ثم أعود مرة أخرى إلى البيت.

عندما كنتُ أمر بالسيارة من فوق الوادي، كنتُ أشعر أن الصخور تتدلى أكثر يومًا بعد يوم، وكأنها على وشك أن تتفكك في أي لحظة، وتُحطِّم الطريق.

⌘⌘

دائمًا ما كانت "مارلينا" تقول: "بمجرد أن ننجب طفلًا، تنغلق علينا المصيدة، ونظل عالقين فيها مدى الحياة".. لطالما كانت مقتنعة بتلك العبارة، ولكنها الآن ترى الأمر من منظور آخر، حيث قالت لي ذات مرة: "علينا أن نطلق العنان لأنفسنا، ونمضي في طرق جديدة في الحياة، ونتَّخِذ القرارات، ونتحلى بالواقعية، ونتخلى عن الأماني والأحلام الوهمية. فهذا هو أساس النضج. صحيح أنني لست سعيدة بهذا الأمر، ولكنه الواقع الذي لا بد أن أعيشه!"

⌘⌘

حاولتُ أن أعتاد كلمة "ماما"، ولكنها ظلتْ غريبة على مسامعي. هناك أمهات يصرخن، وأمهات يضربن أبنائهن. وهناك أمهات يبتسمن في الإعلانات، بينما يُزِلن البقع من ملابس أبنائهن. وهناك أمهات يكوين قمصان أزواجهن، ويقدمن الطعام لأفراد الأسرة الجالسين أمام المائدة. وهناك جدات يرتدين المريلة، بينما يخبزن فطيرة التفاح، ويطبخن

الفطائر. وهناك أمهات يختفين؛ هكذا بمنتهى البساطة.. ويتركن وراءهن كل شيء.

ولكني لا أرى نفسي في هذه الكلمة.. فمهما ظللت أرددها، لا أشعر بمعناها أبدًا.

يقولون إن البحر له ذاكرة، وإن كل الأشياء تترك آثارها في قاع البحر.

⌘⌘

رن الهاتف، ولكني لم أتعرف على الرقم الذي ظهر أمامي على الشاشة.. وإذا بي أُفاجأ بصوت أبي، فقد عرف بحملي. كنت أعلم منذ البداية أنه سيتواصل معي حالما يصل إليه الخبر، وأنها مجرد مسألة وقت. قال لي:

– دعينا ننسى الماضي، فأنا والدك!

جاء إليّ، وانتظرني في الشارع بجوار سيارته. عندما رأيته، شعرتُ بضيق في حلقي، وهَمٍّ في صدري. لم أستطع أن أنظر إليه في عينيه، ولكني لاحظتُ عليه علامات الشيخوخة، حيث شاب شعره، وبرزت تجاعيده، وبدا هزيلًا. تغيرتْ طريقة ملابسه، فقد ارتدى ثيابًا مهملة. حتى وقفته تغيَّرت، وأصبح ظهره محدبًا بعض الشيء. تغلغلتْ الدموع في عينيه، ولكنه قاومها وضمني إليه، كما لو كنا طوال تلك السنوات الماضية أبًا وابنته. ولكني سرعان ما حررت نفسي من ذلك الجسد الغريب، فأمسك بيدي، وكأنني طفلة صغيرة، ثم قال:

– انظري إليك! لقد صرتِ امرأة بالغة.

لم أجد ما أقول.. أردتُ أن أقول له: "وأنت تبدو حسن المظهر"، أو "كيف حالك؟"، أو "سيارتك جميلة"، ولكني لم أنبس ببنت شفة، وظللتُ واقفة أمامه في صمت. لم أرَ أمامي سوى رجل غريب، ولم يكن لدينا ما نقول.

⌘⌘

في الصباح، استيقظنا معًا مع رنين المنبه. أعددتُ القهوة، بينما قطعتَ الخبز، ووضعتَ الزبد والمربى على المائدة، ثم أخذتَ الجريدة من صندوق البريد. وبينما تناولنا فطورنا، تبادلنا بضع عبارات مقتضبة؛ "أعطني الزبد من فضلك"، "متى ستعود إلى البيت اليوم؟" وبعد الفطور، غيرتَ ملابسك، وذهبتَ إلى المكتب. أما أنا، فتسوقت، ورتبت البيت، ثم سقيتُ أزهار الحديقة. وقرابة الظهيرة، اتصلتَ بي، كي تطمئن على أحوالي. سمعت في الخلفية أصوات زملائك وضحكاتهم، فقد كنتم تتناولون معًا وجبة الغداء. وبعدها بعدة ساعات، عدتَ إلى البيت.

اتصل بي أبي مرة أخرى. لعله يريد أن يُعوِّض ما فاتنا، وأن يُصحِّح أخطاء الماضي مع حفيده. ولكني ظللتُ محدقة في اسمه الذي ظهر أمامي على الشاشة، دون أن أستقبل المكالمة. وبعدها، مسحتُ رقمه. ولكنه أرسل لي رسالة نصية، كي أعاود الاتصال به.

وفي المساء، جلسنا معًا في المطبخ. حيث طبخنا، وتناولنا الطعام، ثم نظَّفنا المائدة. صرنا لا نتبادل سوى العبارات نفسها مرة بعد مرة...

أخذتَ تشكو لي من مشاكل العمل، فقلتُ لك:

– لا تأخذ الأمور على محمل الجد.

فكرتُ في مواضيعٍ جديدة، كي نتحدث عنها، ولكن لم يطرأ على ذهني سوى طفلنا، وبيتنا، وسيارتنا، والتأمين، وفواتير الهاتف، وقائمة المشتروات؛ تلك هي المواضيع التي نتبادلها عبر الأشهر الماضية.

وبعدما فرغتَ من حديثك، حكيتُ لك عن التغيرات التي أشعر بها في حركة الطفل، وأغراض البيت التي اشتريتها. وبعد ذلك، جلسنا أمام التليفزيون الجديد. إنه حقًا أكبر من القديم، كما أن الأريكة الجديدة أكثر راحة، وغرفة المعيشة أكثر اتساعًا. دوى صوت مذيع الأخبار من جهاز مُكبِّر الصوت، فصدح من جميع الجوانب. ومع كل تلك التغيرات، بقينا على حالنا؛ فما من أثاث، ولا منزل، ولا حتى طفل، يمكن أن يغيرنا أو يغير ما بيننا.

استلقينا معًا أمام التليفزيون في صمت، نُنصت إلى مذيع الأخبار، وهو يُحدِّثنا عن الانتخابات، والحزب اليميني، وإحباط إحدى الهجمات الإرهابية، واكتشاف مخلوقات بحرية جديدة، مثل السمكة التي ليس لها وجه، حتى غفوت في أثناء تقرير حالة الطقس.

وفي الحلم، رأيت طفلنا. كان مستلقيًا بين ذراعيّ، ولكنه أخذ يكبر بسرعة، لدرجة أنني لم أعد أقدر على حمله، فأفلته من يديّ. وإذا به يقف أمامي، ويصل طوله إلى خصري، ثم أخذ يكبر ويكبر، حتى صار أطول مني. وهكذا ظل يزداد ارتفاعًا، حتى صار في حجم الشجرة، ثم امتدَّتْ ذراعيه من فوقي مثل الأغصان، ونمتْ أوراق الشجر الخضراء من أصابعه.

بدأ العد التنازلي، ولم يتبقَ من الأيام سوى القليل؛ اثني عشر يومًا، أحد عشر يومًا، عشرة أيام. كلما اقترب يوم الولادة، كلما تلقيتُ اتصالات أكثر؛ من "مارلينا"، و"ساندرا"، و"آنا"، و"أليكس". حرصتْ والدتك على

زيارتي عدة مرات في اليوم، كي تَطْمَئِّن عليّ. كما أنك كنت تواظب على الاتصال بي في تمام الثانية عشرة والنصف ظهرًا. فكان هناك دائمًا من يعتني بي، ويَطْمَئِّن على أحوالي على مدار الساعة.

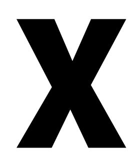
قالتْ لي والدتك:

- أريدكُ أن تطمئِنِّي، وألا تُنصتي إلى القصص المفزعة!

⌘⌘



عشرة أيام



شعرتُ بضغط قوي في بطني، فاتصلتُ بك. وبعدها بعشر دقائق جئتَ إليّ، وأخذتني إلى المستشفى. بدا عليكَ التوتر والقلق، لدرجة أن يديك ارتعشتا أثناء القيادة. ولكن الطبيبة قالت لنا:

– لا يزال الوقت مبكرًا.. عودا إلى المنزل.

وفي تلك الليلة، لم يغمض لنا جفن.

تسعة أيام

IX

طرقتْ والدتك الباب، وسألتني:

- أترغبين في تناول الطعام؟

أعدَّتْ لي طعامي المفضل، بالإضافة إلى كيكة شهية، ففاح المبنى برائحة خليط الكيك. وفي أثناء الطعام اتصلتَ بي، وسألتني:

- كيف حالك؟ هل تشعرين بالألم؟ ماذا تفعلين؟

اطمأن قلبك، عندما عرفتَ أن والدتك تعتني بي.

وفي فترة ما بعد الظهيرة، غفوتُ أمام التليفزيون، وعندما استيقظتُ، وجدتُكَ أمامي، حاملًا معك تورتة شوكولاتة كبيرة.

ثمانية أيام

VIII

نبتتْ الزهور الأولى في براعم شجرة الكريز، فقد حان وقت الربيع. هبَّت ريحٌ خفيفة عبر الأغصان، تخللها طنين النحل، وعبق أزهار الكريز. جلستُ مع والدتك في الحديقة نلعب الورق طوال فترة ما بعد الظهيرة.

سبعة أيام

VII

تخيلتُ نفسي جالسة مع طفلي في حجرته، أشير بإصبعي على الحائط، وأقول له: "هذا أخطبوط، وهذا نجم البحر، وهذه سمكة منتفخة. وهذا هو البحر؛ الأساس الذي تشكلت منه كافة تفاصيل الأرض. أنت أيضًا كنت تسبح في بطني مثل السمكة الصغيرة".

ستة أيام

VI

اتصلتْ بي "مارلينا"، وشعرتُ في نبرة صوتها بمزيج من القلق والفرح، فقد كانت تضحك وتبكي في الوقت نفسه. قالت لي، إنها حامل، ثم استطردتْ قائلة:

- وداعًا للسفر إلى الأماكن البعيدة! الآن يمكننا أن نسافر معًا إلى "إيسولو"، ونبني قلاعًا رملية على الشاطئ.

خمسة أيام

٧

في الحلم، وجدتني أستلقي فوق سطح الماء بلا حياة، وكأنني قنديل يطفو على السطح؛ تحملني الأمواج ذهابًا وإيابًا، بينما تُحلِّق طيور النورس من فوقي في اتجاه الجنوب.

أربعة أيام

١٧

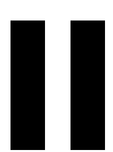
وصلتني رسالة نصية من رقم أبي، يسألني: "هل وصل ولي العهد؟".

ثلاثة أيام



وقفتُ أمام المرآة، ولكني شعرتُ بغشاوة تُخفي ملامحي. أغمضت عينيّ، ثم فتحتهما مرة أخرى، فوجدت وجهي أمامي ظاهرًا جليًا.

يومان



جلستُ في الشرفة. كانت الأرض باردة، ولكن الشمس أدفأت وجهي. أخذتُ أتخيل أبي حاملًا طفلي بين ذراعيه.. شعرتُ أنهما يليقان ببعضهما. وفجأة، تلبَّدتْ السماء بالغيوم، وكأنها بحرٌ يحوم من فوقي.

يومًا واحدًا

I

لم أشعر بأي شيء.. كما لو كان الحَمل سيستمر إلى الأبد. تلك السمكة الصغيرة صارت سمينة، وعلِقَتْ داخل إحدى الشعاب المرجانية. وأنا قارب صيد، أُبحِر بلا هدف عبر المنطقة.

يقولون إن البحر لا يمكن ترويضه، فهو يثور ويهدأ من تلقاء نفسه.

توقفتُ عن العد!

جلسنا يوم الأحد في مطبخ والدتك، حيث فاحت رائحة فطيرة التفاح، ومربى التوت البري. ساعدتُها في الطهو، فقد قطعت البطاطس وحمرت قطع اللحم في الزيت. دوتْ موسيقى "البوب" من الراديو، وامتزجتْ مع صليل الكؤوس والصحون. وفي تلك الأجواء، جلس جميع أفراد العائلة معًا، وكان هناك متسعٌ كبيرٌ في المكان؛ سيشغله الأحفاد يومًا ما.

تحرَّكتْ الأيادي من حولي، كي تلتقطْ الصحون والأوعية. صبَّ والدك النبيذ في الكؤوس، ولم يتوقف عن الحديث، فقد كان حقًا سعيدًا بتجمعنا معًا. اشترى "دانيال" قطعة أرض، وشرع في بناء بيته الجديد بمساعدة والدك. لا بد أن أصمم أنا حجرة طفلهما؛ نعم، فـ"آنا" أيضًا حامل. وقد رشَّحتُ لها طبيبتي، والمستشفى، التي سألد فيها. كما شرحتُ لها كافة تفاصيل الفحوصات.

أخذ "دانيال" و"آنا" يعرضان تصميم البيت، وصور "السونار". كنا جميعًا سعداء لبعضنا بعضًا. غمرتنا الفرحة، وتعالت ضحكاتنا وأصواتنا في سائر أرجاء المبنى.

⌘⌘

في جوف الليل، استيقظتُ من النوم، لأجد السرير بجواري فارغًا، والأرض ممتلئة بالماء. أصابني الذعر، وما إن أشعلتُ الضوء، حتى وجدت الماء يتدفق عبر جدران البيت وأبوابه. صرختُ قائلة:

- "جووورج!".

وصل الماء إلى ركبتي، وانقطع التيار الكهربائي.. ركضتُ إلى الشرفة، ولكني لم أتمكن من فتح بابها.. شعرتُ أن الجدران تتأرجح من حولي، ووصلتْ شقوقها العميقة حتى السقف.. طفا الأثاث على سطح الماء، ومعه الكتب والصور ولوحاتي.. انكمش الورق، وذابت الألوان، فذابت معها وجوهنا.. فقدتُ ثباتي، ولم أعد أشعر بالأرض.. انجرفَ المهد بجواري، وانهار السقف من فوقي.. صرختُ بأعلى صوتي:

- "إريكاااا!".

شرقتُ بالماء المالح، فأحرقَ حلقي.

قضينا شهورًا في بناء تفاصيل هذا البيت، ولكنها انهدمت في غضون بضع لحظات؛ الطاولة الخشبية الجميلة، والتليفزيون، ومقاعد البار، والأريكة.

أين الجميع؟

قاومتُ التيار، وأخذتُ أسبح، بينما ضربني الماء في وجهي. وفجأة، وقعتْ عيناي على "جورج". كان يحاول أن يقول لي شيئًا، فصرخت له قائلة:

- النجدة!

ولكن لم يخرج من فمي سوى بضع فقاعات من الماء المالح. تشبثتُ بطاولة المطبخ، ولكن التيار ازداد قوة، فيما تكدَّستْ الأمواج، وظلَّتْ ترتفع إلى أعلى، وتدفعني إلى أسفل، حتى استسلمتُ لها، وتركتُ نفسي أغرق وأغرق.

وفجأة، اختفى الضجيج، وعم السكون. فلم يتسلل إلى أذني سوى صوتٍ خافت؛ صوت الأثاث، وهو يغرق في الهاوية.

تحوَّل بيتي إلى حطام، وكأنه بيت الأشباح المهجور. تأرجحتْ من فوقي أرجل الطاولات والكراسي، بينما تساقطتْ من حولي الكتب، والصحون، واللوحات، والمنبه، و"الريموت".

ظللتُ أغوص أعمق وأعمق، حتى وجدتُ نفسي أحوم في بيت والديه الفارغ، حيث غرق السرير في المطبخ. وفجأة، تسللتْ إلى مسامعي أغنية "ديفيد بوي"، التي تقول كلماتها: "ليتني أستطيع أن أسبح مثل الدلافين". وإذا بسربٍ من الأسماك الصغيرة يظهر أمامي.. مئات الأسماك، تلألأت زعانفهم باللون الذهبي مع ضوء القمر الشحيح. لا بد أن "جورج" يحتضر من الخوف. أخذتُ أناديه، ولكن لم يخرج من فمي سوى فقاعات هواء ساكنة، تتركني وتتصاعد وحدها إلى السطح.

شكَّلت الأسماك الصغيرة دائرة من حولي، وأخذتْ تقترب مني أكثر فأكثر، بينما نظرتْ إليّ في عينيّ وكأنها تنتظرني منذ الأزل.

⌘⌘

وصل المولود.. إنه يبدو تمامًا مثل الصورة التي رسمتها له في خيالي!

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. المدينة الخفية	أوندياكي	أنجولا
2. اسمى نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
3. كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4. أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5. جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
6. شرخ في الحائط	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
7. نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
8. مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
9. سأنتقم لموتك	كارما ريبرا	أسبانيا
10. الدبلوماسى	إليت أليشكا	ألبانيا
11. قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتسة	ألمانيا
12. لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
13. سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
14. يومًا ما سنقول لبعضنا كل شيء	دانييلا كراين	ألمانيا
15. الحب في خمسة فصول	دانييلا كراين	ألمانيا
16. طريق الوحدة	بينيدكت ويلز	ألمانيا
17. حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
18. أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
19. مصنع الأحذية	چيفري لويس	أمريكا
20. عندما كنتُ أنتِ	مينكا كينت	أمريكا
21. يوم بيع البيت المفتوح	كاتى سايس	أمريكا
22. الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
23. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
24. حياة على باب الثلاجة	أليس كويبرز	إنجلترا
25. ثم ابتلعه الحوث	أمير أحمدي أريان	إيران
26. لا صديق سوى الجبال	بهروز بوتشاني	إيران/ كردستان
27. خالدو طهران	على ريزا طاهرى أراغى	إيران
28. الموت والبطريق	أندرى كوركوف	أوكرانيا
29. تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
30. بقايا يوم صيفي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
31. بيت من زجاج	ويندي إرسكين	أيرلندا
32. عملية البنك الأيرلندي	ريتشارد أوراو	أيرلندا
33. مشعلو الحرائق	جان كارسون	أيرلندا
34. قصص من أيرلندا	مجموعة مؤلفين	أيرلندا
35. الوردة البيضاء.. الغابة السوداء	إوين دمبسى	أيرلندا
36. جريمة الساحر	أرنى ثورارينسون	أيسلندا

العنوان	المؤلف	الدولة
37. شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
38. عاصفة الشمال	إينار كاراسون	أيسلندا
39. الفخ	ليليا سيجورادوتير	أيسلندا
40. المصيدة	ليليا سيجورادوتير	أيسلندا
41. القفص	ليليا سيجورادوتير	أيسلندا
42. امرأة على حافة العالم	ستينون سيجورذاردوتير	أيسلندا
43. رسائل إلى هيلجا	بريجيسفين بيريسون	أيسلندا
44. الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
45. أسود صقلية	ستيفانيا أوشى	إيطاليا
46. حذارِ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
47. من هو لو؟	أوتافيو كابيلاني	إيطاليا
48. أحلام سعيدة يا صغيري	ماسيمو جارميلليني	إيطاليا
49. العزلة	كلاوديو مورانديني	إيطاليا
50. يومًا ما	ماسيمو جارميلليني	إيطاليا
51. سيارة اسمها نصر	إيلمار تاسكا	إستونيا
52. الرجل الذي تحدث الثعبانية	أندروس كيريفاك	إستونيا
53. أرق من الجلد	أوزما إسلام خان	باكستان
54. مرثيات وطن	أياد أختار	باكستان
55. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
56. امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
57. بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
58. كابوس ساو باولو	أنطونيو شيرشينيسكي	البرازيل
59. الروليت الروسي	رافاييل مونتيز	البرازيل
60. عائدة إلى الشمس	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
61. امرأة في الظلام	رافاييل مونتيز	البرازيل
62. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
63. نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
64. الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
65. ماذا فعلت غدًا؟	برونو فييرا أمارال	البرتغال
66. بين يديك	إينيس بيدروسا	البرتغال
67. أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
68. فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
69. التعساء	ديميترى فيرهولست	بلجيكا
70. صانع الملائكة	شتيفان بريجس	بلجيكا
71. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
72. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
73. أبسنت	أيفر تونش	تركيا

74. أحلام محطمة	بيولنت سينوكاك	تركيا
75. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشى	تركيا
76. امرأة صديقى	تونا كيرميتشى	تركيا
77. توباز	هاكان جنيد	تركيا
78. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشى	تركيا
79. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
80. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
81. الطلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
82. تانجو إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
83. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
84. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
85. الشيطان امرأة	هاندى ألتايلى	تركيا
86. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشى	تركيا
87. لون الغواية	هاندى ألتايلى	تركيا
88. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
89. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
90. سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
91. جريمة أبي	هاكان جنيد	تركيا
92. الرجل الذي باع العالم	ألبير چانيجوز	تركيا
93. المدينة ذات العباءة القرمزية	أصلي إردوغان	تركيا
94. الدرويش	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
95. حكايات العمة روزا	سيفجي سويسال	تركيا
96. الوكالة السرية	ألبير جانيجوز	تركيا
97. نجم المساء	إسكندر بالا	تركيا
98. ذات ظهيرة في يني شهير	سيفجي سويسال	تركيا
99. نيران الجحيم	ألبير چانيجوز	تركيا
100. جرائم براج	ميلوش أوربان	التشيك
101. معسكرات الشيطان	ياخيم توبول	التشيك
102. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
103. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
104. الجريمة المنسية	فيكتوريا هانيشوفا	التشيك
105. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
106. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
107. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
108. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
109. احذري يا آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
110. الحب في زمن الاحتباس الحرارى	جوزيف بانيك	التشيك

111. القضية لم تنتهِ بعد	ميخال سيكورا	التشيك
112. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
113. العقل المدبر	ديفيد أوجنر	جواتيمالا
114. آزوري	ك. سيلو دويكر	جنوب أفريقيا
115. المنتحر	أولجا سلافينكوفا	روسيا
116. في انتظار الطوفان	رومان سنشين	روسيا
117. عودة السوفيتي	زيبلسكي باسترناك وفيريماي بيا	روسيا
118. رسائل سبتمبر	برايونى رحيم	زيمبابوى
119. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
120. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
121. يوغوسلافيا.. أرض أبي	جوران فوينوفيتش	سلوفينيا
122. شجرة التين	جوران فوينوفيتش	سلوفينيا
123. الحياة هنا	ميرال قريشى	سويسرا
124. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
125. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
126. كاتبة وكاتب	فيولا رونر	سويسرا
127. المتلعثم	تشارلز ليفينيسكي	سويسرا
128. لصوص المقابر	فرانسين ماري ديفيد	سويسرا
129. كالمان	تشارلز ليفينيسكي	سويسرا
130. جريمة عيد الميلاد	أندريه روزلاند	السويد
131. جريمة الذئب الوحيد	هينينج مانكل	السويد
132. جريمة تفجير الأولمبياد	ليزا ماركلوند	السويد
133. غُرف مدى الحياة	إيميلى شيب	السويد
134. بكين.. بكين	شيو تسى تشين	الصين
135. بنات الصين	يى ماى	الصين
136. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
137. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
138. سبع ليال في حدائق الورد	يى ماى	الصين
139. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
140. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
141. أيام.. شهور.. سنوات	يان ليان كه	الصين
142. المبنى 21	تشو داشين	الصين
143. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	صربيا
144. حمام البلقان	فلاديسلاف باياس	صربيا
145. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
146. جريمة في باريس	صوفي إيناف	فرنسا
147. أخى الكبير	ماهر جوفن	فرنسا

148. ندبات	دالي ميشا توريه	فرنسا
149. فرقة غريبة الأطوار	صوفي إيناف	فرنسا
150. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
151. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
152. حديقة الكلاب	صوفي أوكسانين	فنلندا
153. جريمتي الأولى	لينا ليهتولاينين	فنلندا
154. من عدوها؟	لينا ليهتولاينين	فنلندا
155. اعترافات مؤجلة	ماجيلا بودوين	فنزويلا
156. الكاتدرائية السوداء	مارسيال جالا	كوبا
157. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
158. أين أنتِ؟	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
159. العودة إلى الوادي المظلم	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
160. فتاة كازابلانكا	إن كولي جان بوفان	الكونغو
161. حارس الشانزليزيه	جُوز	كوت ديفوار
162. فنانو الذاكرة	چيفري مور	كندا
163. حتى تذوب الثلوج	كريستيان قواي بوليكوين	كندا
164. جريمة الابن الصالح	جونج يو جونج	كوريا
165. العملية "سمكة الفيل"	أوتو أوزولس	لاتفيا
166. الثامن عشر من نوفمبر	باولز بانكوفيكيس	لاتفيا
167. خطاب مجهول الهوية	زيجموندز سكوينش	لاتفيا
168. أمى عميلة سرية	أوندراش فورجاتش	المجر
169. صانع الزجاج	إرميس لافازانوفسكى	مقدونيا
170. القنَّاص	بلايز مينيفيسكى	مقدونيا
171. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
172. القزم	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
173. د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
174. الجريمة المكسيكية	إكتور آجيلار كامين	المكسيك
175. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
176. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
177. جريمة العروس الهندي	كارين فوسوم	النرويج
178. جريمة على حافة البحيرة	كارين فوسوم	النرويج
179. سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
180. حرية حزينة	فريدريكه جيزفاينر	النمسا
181. ف.و.م.و	ألموت تينا شميت	النمسا
182. منزل وسياراتان وطفل	تانيا رايخ	النمسا
183. حزن غير محتمل	بيتر هاندكه	النمسا
184. ثقل العالم	بيتر هاندكه	النمسا

185. في ليلة مظلمة تركت منزلي الصامت	بيتر هاندكه	النمسا
186. عودة مطولة إلى الوطن	بيتر هاندكه	النمسا
187. أعيش مع شبح	لورا فرويدنتالر	النمسا
188. أختي قاتلة متسلسلة	أوينكان بريثويت	نيجيريا
189. فتاة نيبال الثرية	شيوانى نيبانى	نيبال
190. دكّان الساري	عبدالله خان	الهند
191. أحزان هندية	روبا باجوا	الهند
192. جوى سبيدبوت	تومى فيرينيجا	هولندا
193. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
194. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
195. عمدة أمستردام	هيرمان كوخ	هولندا
196. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
197. أجمل فتاة في چنوة	إيليا ليونارد فايفر	هولندا
198. قلق الأمسيات	ماريكا لوكاس رينفيلد	هولندا
199. عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا
200. تومابيني	كلارا موماني	كينيا
201. بذلة فضاء برتقالية اللون	لويد ماركهام	ويلز
202. المدينة الخاوية	جاري رايموند	ويلز
203. كتاب نيبو الأزرق	مانون ستيفان روس	ويلز
204. لماذا قتلت أعز صديقاتي؟	أماندا ميكالوبولو	اليونان
205. جزيرة الفئران	كريستوس إيكونومو	اليونان
206. شيء ما سيحدث	كريستوس إيكونومو	اليونان

صدر من كتب عامَّة:

207. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
208. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
209. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
210. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
211. الشاي: ثقافات.. طقوس.. حكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
212. لماذا تنتفض الشعوب؟	جيرو فون راندوف	ألمانيا
213. الرمان: تاريخ وحكايات من حول العالم	بيرند برونر	ألمانيا
214. القمر	بيرند برونر	ألمانيا
215. السادات.. شميت: حوار الأزمات	كارل جوزيف كوشيل	ألمانيا
216. مستقبل النسوية	مجموعة مؤلفين	إنجلترا
217. إسكتشات مصرية	جيريمايا لينش	إنجلترا
218. شذرات من التاريخ المصري	آرثر بروم	إنجلترا
219. تشرنوبل: 01:23:40 الحقيقة كما حدثت	أندرو ليذربارو	إنجلترا
220. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
221. الهندى الأحمر الأيسلندى	جون جنار	أيسلندا
222. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
223. البيئة: لغز المستقبل	أندري سنار ماجنسون	أيسلندا
224. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
225. زيارة لمكتبات العالم: أشهر مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
226. ضد أمازون	خورخى كاريون	إسبانيا
227. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
228. الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
229. خيالات الشرق	إيسا دى كيروش	البرتغال
230. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	ديفيد فان ريبروك	بلجيكا
231. علم كرة القدم	مجموعة محررين	البرازيل
232. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
233. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
234. كيفية حساب بصمتك الكربونية	دويين باهتشجى	تركيا
235. النشوة المادية	جى. إم. لو كلوزيو	فرنسا
236. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
237. الأسماك.. ما لا نعرفه عن عالم البحار	بيل فرانسوا	فرنسا
238. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
239. ماركيز: لن أموت أبدًا.. حكايات كتبه	كونرادو زولواجو	كولومبيا
240. متسلقو الجبال	لويس كونساليز سارمينتو	كولومبيا
241. الخبز	بردراج ماتفيجيتفيتش	كرواتيا
242. الجرى	ثور جوتاس	النرويج

243. سوفيتستان	إيريكا فاتلاند	النرويج
244. الحدود	إيريكا فاتلاند	النرويج
245. النيل	تاريى تفيت	النرويج
246. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
247. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا
248. النسوية للرجال	ينس فان تريخت	هولندا
249. ذلك المريض	إلين دي فيسر	هولندا
250. الدهون: العنصر السرى	مارييت بون وليزبيت فان روسوم	هولندا